الماضي لا يعود



محمد عبد الحليم عبد الله

محمد عبد الحليم عبد الله

الماضي لا يعود

مجموعة أقاصيص

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

خطيئة وغفران

كنا فى الدار وحدنا . والدار على حدود القرية أمامها الترعة وخلفها الحقول وخط من الأشجار المختلفة النوع يمنح الطريق الظل أثناء النهار والوحشة أثناء الليل .

والليل شديد السكون ، يحرك الغرائز ويثير الرغبات ويهيج الخوف فى نفوس المنفردين .. وسهرت أمى تقص علىَّ قصة زواجها من أبى ، وكانت تكلمنى فى ذلك العهد كما تكلم القطة هرتها فتحقق لنفسها الرغبة الطبيعية فى أن تتكلم . تضع ثديها فى فم أحد الصغار من إخوتى وتنكفىء نحو الأمام فى وحشة ومذلة ، ثم تحكى . وفى حائط الحجرة مصباح معلق ، وعلى الحصيرة ثلاثة أطفال . وفى حجرها واحد ، وعلى الفرن (حلة) خلت من الطبيخ أثناء العشاء ، والكلب ينبح فوق السطح ، وخيالى يحلم بأن فى الحقول ذئبا ...

وكانت تبدو جميلة حتى ولو كانت حزينة ، وفى دقة ملامحها بساطة قروية غنية عن الغسل والتلميع وكانت تحكى بطريقة تجذبك إلى صفها وتشعرك بأنها ضائعة الحق فى الحياة .

وكثيرا ما كنت أخر صريع النوم وصوتها ينصب في أذني فأرقد حيث أنا ، فتزجرني لآخذ مكاني في الصف على الوسادة المشتركة وتحت الغطاء الواحد مع بقية الأولاد .

كانت ليالينا خالية ، خصوصا في الشتاء ، ففي هذا الفصل كان أبي يتأخر عن الحضور إلينا لأنه كان شاقا عليه ، كان موظفا صغيرا أو عاملا كبيرا في إحدى محطات السكة الحديد على طريق الجبل ، وكان يؤثر أن يعيش هناك وحده ، فهذا أيسر عليه وأرخص له . وفي نهاية كل أسبوع أو أكثر ـــ على حسب الظروف ـــ كان يأتي إلينا محملا بأشياء : عواطف ، وفواكه ، وعيدان قصب ، وخضروات ... وغيارات تحتاج إلى غسيل ، وشعر طويل يحتاج إلى حلاقة ، ونقود إذا كنا في أول الشهر .

ويظهر أبي في دارنا فجأة . ثم يختفي عنا فجأة ، كأنه ضيف أو كأنه طيف .

ولطول غيابه عنا كانت أمي هي الشخص الأول في حياتنا . وكنت أنا الشخص الأول في حياتها بالنسبة إلى إخوتي . لذلك ... كنت أشعر ـــ باحساس الغلمان ـــ أنها تأنس إلي ، وحين يسكت الليل وتهجع القرية في بكور وبلادة كانت تسامرني وتحكي لي من شئونها ما أفهم وما لا أفهم .

وأهم قصة سمعتها هي زواجها بأبي . كانت تكررها بقصد أو بغير قصد . تنسى فتعيدها فتسترجعها . وكنت أستمع لها في بعض الليالي والنوم يضغط على رأسي فيكاد عنقي ينثني من ضغطه .

كان أبوها رجلا مسنا أنجبها على شوق بعد أن حرم الذرية طيلة أيام حياته ، وقد عجبت أمها من ثمرة آخر الموسم هذه التي لعبت

في بطنها على غير انتظار ، ثم جاءت بها جميلة مليحة كأنها لاتنسب إلى أسرتها ، وصارت في بيت أبويها كشمعة صغيرة يخاف عليها صاحبها أن تذوب .

لكنها لم تبلغ حدود العاشرة حتى فقدت أمها ، وفي حدود الثانية عشرة مات أبوها في معركة قامت بين العمال الذين يحفرون المصارف ، وكان أبوها أحد الملاحظين هناك ، فأخذ ضربة « كوريك » على رأسه ، فقضى نحبه في الحال .

واصبحت الطفلة الكبيرة منذ ذلك اليوم في رعاية عمها ..

قصت على هذه الحكاية عدة مرات وفي اليال من كل الفصول ، وكانت ذكرى أبيها أشد وقعا على قلبها من ذكرى أمها . كانت تصف لي طريقة دخوله عليها واستقبالها إياه ، والفواكه التي كان يحملها إليها في قرية لا تعرف الفواكه ، والمناديل الحمراء والمناديل الخضراء ذات « الترتر » و « الأوية » ، وغوايش الفضة ، وضفائر الحرير .

أما فترة إقامتها في بيت جدي لأبي أو في بيت عمها هي ، فقد كان الغموض مخيما عليها! لم تكن تحكي لي عنها شيئا ذا بال ! وكنت أفهم من تقلصات وجهها وتضييق عينيها حين تتعرض لهذه المرحلة أنها أيام غير سعيدة وكفى .

ولم أكن أرى على وجهها السرور في الليالي التي كان أبي يزورنا فيها . كان في بعض الأيام يأتي إلينا عصرا ، فنراه ـــ ونحن نلعب على الطريق ـــ فنجري ونتعلق بملابسه ونحمل منه بعض « الحاجات » التي يحتضنها ، وكان في بعض الليالي يأتي إلينا متأخرا بعد أن ننام جميعا ، فكنت أستيقظ ـــ وأنا

أكبرهم — على هزات عنيفة من يده ، ويستيقظ من هم أصغر منى بعد أن يضع على فم أحدهم شيئا حلوا ... برتقالة ، أو قطعة من الحلوى ، أو شيئا مما يفرح الأطفال .

وكانت أمى تزم شفتيها وتضيق عينيها وتدمدم ليدعنا نائمين ، ولكنه ما كان يسمع !

ويتكلم الأبوان فى شئون عامة ، وقد يتكلمان فى شئون خاصة .. حتى اذا ما غلبنا النوم رقدنا فى أماكننا . أما هما فكانا يرقدان إلى جوارنا أو يخرجان — إذا شاءا — إلى مكان آخر .

ويعود المرح إليها عقب سفره ، أو يعود إليها طبعها الهادىء على الأقل ، وتمشى الحياة فى الدار على صورة غريبة ، صورة ناس يأخذون ولا يعطون ، وينعم عليم فلا يشكرون .

واجتاحت قريتيا فى هذه الأيام الشتوية موجة من الحرائق ، وكان الجو دائما فى صف المجرمين ، فالرياح الشمالية الغربية تهب جافة لا ماء فيها ، وتنشط أثناء الليل نشاطا مخيفا تزقزق به سقيفة الحطب فى كل دار . وما تكاد العيون تغمض حتى يستيقظ الناس على الصراخ وعلى جرى الفلاحين بنعالهم الثقيلة أو أقدامهم الحافية إلى حيث تشتعل النار ، يطفئونها وهم يتصايحون ويفرغ عليها النسوة الماء من البلاليص وهن يولولن .

كنت استيقظ فى كثير من الأوقات ، فأجد الليل ضاربا أطنابه ، والسكون مخيما كثيفا . يوقظنى برغوث ضل الطريق فدخل أذنى ، أو حلم مزعج يوحى إلى أن حريقا شب قريبا من دارنا ، وافتح عينى لأرى سطرا من الأطفال يرقد تحت الغطاء ء والأم قريبة منهم تتمدد ناحية العتبة ، والمصباح يلفظ أنفاسه من جهد السهر ، وألقى نظرة

على النائمين ثم أعود فأستأنف النوم .

وأرقت فى إحدى الليالى من شيء مبهم لعله كان جرجرة الريح فى الحارة . حلمت حلما غير واضح المعالم صارخا مختصرا تبينت منه أننى أسمع وقع حوافر حصان خلف الحائط الذى يفصل بيننا وبين الطريق ، وتحركت فى مرقدى ، ورفعت بصرى المثقل بالنعاس إلى المصباح المجهد ثم تنبهت تماما على صوت حاد .

كانت الطفلة الصغيرة بنت السنتين تبكى وهى راقدة . أدركت أن أمى ستستيقظ لتقضى لها حاجتها ولكن بلا جدوى ، واستمر بكاؤها وارتفع صوت يشوبه الاحتجاج صارخا تخالطه بحة الباكين ، وأخذت الطفلة تنادى : « .. أما .. أما ... أما » . لكن بلا جدوى . ودفعنى إليها الحنان الأخوى ، فتخطيت ثلاثة أجسام تنام تحت الغطاء حتى وصلت وأخذتها وأجلستها فى حجرى ، فاستأنست بى قليلا والشهقات تقطع صمتها ، ثم استأنفت نشيجها مرة أخرى وأخذت تنادى على أمها .

كنت واثقا أن أمى تقضى حاجة لا يقوم بها سواها ، عرضت لها فى الليل ؛ وهو طويل تعرض فيه مثل هذه الحاجات . لكن غيابها طال ، ولم يعد التربيت على كتف الطفلة مقنعا لها فأخذت تصرخ . ولكن صراخها أصبح عاجزا بعد قليل عن تبديد سكرة النوم من رأسى ، فصرت أترنح وأنا جالس وهى فى حجرى حتى اصطدمت ذقنى بأعلى رأسها عدة مرات .

ثم ناغت ، ففهمت أنها تطلب ماء ، فقمت أسقيها . . . كان ذلك بعد مرور ثلاث ساعات فى نظرى أنا وعلى طريقة حسابى . وفى اللحظة التى كنت أضع فيها الكوز على شفتى

الطفلـة سمعت الباب الخارجي للدار يصر فى حذر من المستحيل أن يكتم ، خصوصا فى الليل عندمـا تتضخـم الأصوات بفعـل السكون ، فتبدو وكأنها انبعثت من خلال بوق . وهر الكلب في الساحة بطريقته حين يستقبل إنسانا يعرفه ، وقرقرت أوزة وردت عليها أخرى . ثم اندفع باب الحجرة الشتوية التى ننام فيها فدخل الهواء البارد قبل دخول أمى ...

شهقت فى جزع مغلوب عندما وقع بصرها علـى مبـاشرة :

-هل أنت صاح ؟

وصرخت الطفلة كما يصرخ الغريق ، وتلقفتها بين ذراعيها قبل أن تخلع جلبابها الأسود الذى لا يلبس بالليل ولا ترتديه إلا إذا كانت خارجة من الدار .

أما أنا فلم أفهم شيئا ولم أقل شيئا ، ولم تحدثنى هى بشىء كذلك ، بل ألقمت الطفلة ـــ المتأخرة فى الفطام ـــ ثديها ، ثم انكفأت نحو الأمام فى ذلة لا أدرى ،مأتاها ،وقطبت جبينها وضيقت عينيها ، والمصباح المجهد يرمى ببقية النـور علـى (المنظـر) وعيناى تلاحظانه ، حتى غرقت فى النوم .

وتكرر الموقف فى ليلة تالية وأن اختلف السبب الذى أيقظنى من النوم .

حلمت كأنى جالس على شط ترعة والدنيا شتاء والماء مثلوج ، وكأننى أضع قدمى فى الماء الشديد البرودة ، ثم أسحبهما ، وأعود فأرجعهما اليه وأنا أوجوح ، حتى استيقظت .

رأيت باب الحجرة الشتوية مفتوحا علينا ؛ ليس مفتوحا على اتساعه لكنه موارب ، وتيار هواء بارد يتدفق كأنه الماء من بربخ ،

وقدماى خارجتان من الغطاء أو هو منحسر عنهما والهواء يلفحهما ، وإخوتى راقدون فى أوضاع غير منتظمة فى سطر غير معدول ، والصغيرة لا غطاء عليها ؛ قذفته برجلها ثم هرشت فرفعت جلبابها عن نصفها الأسفل فبدا عاريا ، والمصباح متراقص الذبالة .. والأم ليست فى الحجرة .

ناديت عليها فلم يأتنى رد ، وهممت أن أقوم فأحكم إغلاق الباب لكننى خفت ، ثم تشجعت ففعلت ، وما هى إلا برهة حتى استيقظت الصغيرة وعادت المأساة ؛ أخذت تنادى ثم انخرطت فى البكاء ، فوضعتها فى حجرى وجعلت أمسح لها فمها وأنفها ، لكننى لم أطق ، فبكيت أنا الآخر ..

ولم يطل الوقت حتى سمعت صرير الباب الخارجى وهرير الكلب لاستقباله إنسانا يعرفه ، ثم انفرج باب الحجرة الشتوية علينا كما حدث فى المرة السابقة . ودخلت أمى فى جلبابها الأسود ، وكان أول ما فعلته أن دعت على الطفلة « بكسر الرقبة » ، وكان دعاؤها مشحونا بنقمة ، عرفت فيما بعد أنها نقمة الذين ينغص عليهم غيرهم شيئا يجدونه لذيذا .

واستمهلتنى حتى تغسل قدميها لأن الأرض كانت موحلة قليلا . ثم ألقى المصباح ضوءه عليها ، والطفلة تمتص لبنها فى صمت .

* * *

منذ خمسة عشر يوما وأبى لم يجىء لنا ...

وأحسست نحوه بشوق شديد ، وكنت كل يوم أتطلع نحو الجهة التى يصل منها اذا جاء من سفره ، لكن بلا جدوى ، ثم

أنسى فأنخرط فى اللعب مع أندادى من الصبيان .

وعند مدخل هذه الليلة سألت أمى عنه ، فردت على بعصبية بأنها لاتدرى، ثم ختمت ردها بالدعاء على :

« جاتك نيلة » .

سألت نفسى : لماذا يكون الموقف هكذا ؟ وهل سؤالى هذا كان يستدعى هذا الجواب ؟ وطبعا لم أفهم .

ثم أوينا إلى فراشنا وأخذ كل منا مكانه من الصف ، وألقى علينا الغطاء ، لكننى ما لبثت أن استيقظت على عراك :

ـــ سأوقظهم .

ـــ لا توقظهم .

– إنهم أولادى يا امرأة ؟

– أنا أعرف ذلك أيها الغبى .

- أتشتميننى ؟

ـــ ماذا أصابك هناك ؟ لعلك تحب فاجرة من الفواجر ، أو غجرية من الغجر . لسنا فى حاجة إليك ما دمت هكذا ... ابق هناك ، جننت ؟ ! أتجرنى من شعرى يا ... يا ... يا...

وأخذ صوتها يبتعد ، وجسماهما يتدافعان إلى الخارج .

وانفتح باب القاعة ، فدخل البرد ، ثم أقفل وغاب الصوت ... وخيم السكون على مرقدنا ، وذرفت عيناى دمعة لست أعلم فى صف من كانت .. هل كانت فى صف أبى ، أم كانت فى صف أمى ، أم كانت حسرة على الاثنين !!

وحاولت ألا أنام قبل أن يعودا ، لكننى لم أفلح .

وفى الصباح أكلنا برتقالا ، ومصصنا قصبا ، ورأين أبى وهو مسافر . كان طويل الشعر مهوش الذقن ، انتظر الحلاق فلم يأت إليه ، وخاف أن يفوته القطار ؛ فترك الهدايا والنقود وأخذ معه شعره الطويل وملابسه المغسولة قبل أن تجف تماما ، ثم رجع إلى عمله .

ورسبت فى نفسى بالنسبة لأمى فروض غير مفهومة ، لكنها غير مريحة ، حتى صرت أستيقظ من النوم بحكم قلقى عليها وعدم رضاى عن خروجها .

وتكرر الموقف . ودخل البرغوث فى أذنى فهببت من النوم ، وألقيت نظرة عاجلة على مكانها من الصف ؛ كما تتفقد المرأة حليها فى الزحام فوجدته خاليا . والمصباح ينظر الينا من فوق بعينه الحمراء . وحلة نحاسية سوداء الظاهر قابعة على قبة الفرن فيها ماء ساخن وإلى جوارها كوز ولم تستيقظ الصغيرة ولم يتحرك أحد من إخوتى النائمين . وكل شىء نائم كأنه ميت ...

وسمعت صرير الباب الخارجى ثم دخلت على فى جلبابها الأسود .

لم أتكلم فحسبتنى نائما ، فانتصبت فى وسط الغرفة تخلع الجلباب الأعلى ، فانبرى إليها صوتى جازما حادا يسألها فجأة :

– أين كنت يا أمى ؟

فهتفت من المفاجأة بصوت مهموس :

– بسم الله الرحمن الرحيم !

ثم كورت الجلباب وقذفتنى به فى وجهى ، فانطفأ المصباح من لفحة الهواء ، وسحبت أنا الغطاء على وجهى ، وأبعدت الجلباب بيدى ، ونمت ودمعة على خدى ، وفى حلقى شهقة حاولت

ألا تسمعها أما هى فقد أخذت مكانها من الصف وهى تدمدم والحجرة ظلام وتشتم أناسا كانوا السبب . من هم ؟ لست أعرفهم .

***

استيقظت الليلة من النوم على يد تهزنى وكانت ثقيلة . كانت يد أبى ؛ رأيته مضطرب الأنفاس كأنه حصان حل فورا من العربة ، وكان وحده .. لم أر بجواره أمى .

وحين استويت جالسا على الفراش سألنى :

– أين أمك ؟ أين الملعونة ؟

فأجبت بصوت ناعس :

– لست أدرى . أنا نائم كما ترى .

فاستطرد يقول بعد أن قام وجلس عند العتبة المنخفضة ومد فيها ساقيه :

– عال والله العظيم .. كنت لا أصدق ما أشيع عنها ، وهأنذا جئت ... الباب الخارجى مقفل بلا مفتاح مردود فقط . والعيال نائمون وحدهم .. أين هى ؟ لسنا نعلم ! غير أن التى تخرج فى مثل هذا الوقت من الليل والبرد قارس وفى الأرض بقايا أوحال ، امرأة ليست شريفة الغرض .

وسكت وكأنه يفكر ثم تنهد ، ثم استطرد :

– عال والله العظيم ناس تحفى أقدامهم فى سبيل القروش ويبيتون فى الجبال ، وآخرون ينامون فى الدفء ويصنعون ما يصنعون .

وضحك ضحكة عصبية ، كان خيرا له وأدعى إلى الراحة أن تدمع عيناه . لكنه ضحك ثم ضحك .

وقام إلى قبة الفرن فأحضر ماء ساخنا فى صينية نحاسية ، ووضع رجليه فيها ، وحمل رأسه على كفيه فى جلسة مغلوبة . وكان فى العتبة حزمة من عيدان القصب خفيفة حملها عند نزوله من القطار عدة كيلومترات ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة مجنوب إلى ناحية عليه كثير من أوحال الطريق ، وكان ظهره إلىَّ ، وهو جالس ، فرأيت شعرا مهوشا تحت قلنسوة من الصوف ، وكتفين عريضتين عليهما سترة من « الكاكى » .

وكان يبدد الصمت بين لحظة ولحظة بكلمته المألوفة « عال والله العظيم » . ويبدو أن حظها العاثر دفعها إلى الخروج قبل الوهلة لتى وصل فيها أبى ، لذلك فإنه انتظر المدة كلها ، واستطاع أن يدرك فى أى الأغراض التى تقضى فيها مثل هذه المدد .

وصر الباب ، وهر الكلب ، وقطقط الوز ، فخفق قلبى .

وانفرج باب القاعة عن وجه أمى ودخل قبلها الهواء البارد ، فرأت أبى جالسا ورجلاه فى الماء الساخن ورأسه محمول على كفيه ، فوقفت ذاهلة صامتة وأسندت بظهرها الباب الذى أغلقته .

وتوقعت أنا أن شيئا خطيرا سيحدث ، لكن الرجل ظل فى مكانه كأنه تجمد فيه . وبقيت هى فى جلبابها الأسود مسندة الباب بظهرها ويداها إلى الوراء .

مكانه ... رأيت أمى تجمع ملابسها وهى تبكى وتضع فى صندوقها « الحاجات الصغيرة » ، وكان أبي يلاحقها وهي تفعل ، وينظر إليها فى صمت طويل ، ثم يقذفها بكلمة كلما رأى دمعها يجف ، فتعود إلى البكاء .

وبعد أن تحركت قافلتها المنحوسة إلى بيت خالها فى قرية أخرى ـــ قبل أن تشرق بقليل شمس أحد الأيام ـــ رأيت أبى يجلس القرفصاء على باب إحدى الحجرات ويبكى حتى سال لعابه على ذقنه غير المحلوقة ، كما كانت تفعل أختى الصغيرة بالليل .

وأخيرا ، قامت الطفلة تصرخ بحكم العادة وتنادى على أمها ، وكأنما كان هذا صماما قد انفتح ، فتحرك أبى من مكانه ، وأهوى على زوجته ضربا بكل ما كانت يده تصل إليه ... ثم سحبهما إلى غرفة أخرى .

كنت أسمع وأنا فى مكانى ـــ على الرغم من بكاء الطفلة ـــ سبابا وشتائم بعضها حريمى وبعضها رجالى ، وتنفيضا كتنفيض المراتب ، وبكاء وعويلا واستعطافا فى بعض الأحيان ، ونباح الكلب خائفا مذعورا ، وفترات صمت تقطع هذا كله ، وفترات انفعال تعقب فترات الصمت ، وكفت الطفلة عن البكاء وتكورت ثم نامت ، واستغرقت أنا فى النوم أثناء فترة من تلك التى خيم فيها السكون على الدار .

ولم يسافر أبى وقت الصباح كما كان يسافر ...

وأحسست كأن جدارا فى دارنا يتداعى ، وكأن شيئا يتنقل من

اخذت معها ثلاثة من الأولاد وهى خارجة : بنت على كتفها ، وولد فى يدها ، وآخر يمشى وراءها . أما أنا فقد بقيت مع أبى ... وبكيت مثله ونحن ننظر إلى البيت الخالى ، ونشم أنفاس السكون والخراب منذ صبيحة ذلك اليوم .

وبعد أن أخليت الدار من كل حى ، حتى الدجاج والوز ، أدار أبى فى بابها الخارجى مفتاحا غليظا من الحديد فأقفله.......... ثم سار وسرت من خلفه ، وكان وجهه فى هذا اليوم يبدو كبير السن ، كأن الرجل قطع عشر سنوات من عمره فى الأيام السالفة .

وأفهمنى — ونحن فى القطار — أننى سأبيت معه ليلة واحدة فى مقر عمله فى المحطة الصحراوية ، وبعد هذه الليلة سيذهب بى إلى القاهرة .

كان نادر الكلام فى هذه الفترة ، ويؤلمنى أن أقول إنه أمسى قبيح المنظر ؛ أشبه برجل فى ميدان القتال لا يحلق ولا يغتسل ولا يغير ثيابه ، كل الإفرازات التى يقذف بها جسمه تترسب عليه ، وهو — لحزنه — لا يفكر إلا فى الذى حدث .

وبتنا لا نتكلم ، وأحسست أننا نمشى إلى مجهول ، وأن نصيبى الشخصى من ذلك المجهول أكبر من نصيب غيرى بكثير .

ثم حلق واغتسل وقت الصباح ، ولبس جلبابا من الصوف بنى اللون ، وأخذنى إلى القاهرة .

كنت أعرف أننى ذاهب إلى عمتى لأقيم عندها إقامة دائمة ،

ولكننى كنت راغبا عن القاهرة ، وعن عمتى ، وعن الإقامة فى بيتها ، وخيل الىَّ فى ذلك الوقت أن الإقامة تحت جناح الأمهات ـــ حتى المخطئات منهن ـــ أشد دفئا ونعومة للأبناء من الإقامة تحت جناح امرأة غير أمه .. هكذا خيل إلىَّ .

ولم أكن رأيت عمتى كثيرا ، وفى الحق استقبلتنى وأبى بحنان ، وضربت بكفها المستديرة الصغيرة السمينة فى صدرها المكتنز حين رأت وجه أبى . ثم تركانى فى حجرة ودخلا فى حجرة أخرى .

فهمت أن أبى يحكى لها ما جرى ، وكان صوتها يأتى إلىَّ مشحونا بالعاطفة أو مهزوزا من العاصفة ، أو مبحوحا من البكاء . وكانا يهمسان ويلغطان ويصمتان ، ثم يستأنفان الحديث .

وبات أبى ليلة معى ، وأحسست ـــ ونحن على الفراش ـــ أن فى صدره هما ، وكأنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه تنهد ونادانى ، فرددت عليه دامع العينين . قال :

ـــ اسمع يا عوض ، أمك أصبحت غريبة عنك منذ اليوم ؛ لقد طلقتها لأنها عملت أشياء لا يرضى عنها زوج ... هل أنت فاهم ؟ المهم هو أن تجتهد فى دروسك . عمتك لا ولد لها وستكون ابنا لها ، وزوجها رجل طيب ولو أنه سريع الغضب ... و ...

وأحسست أن صدره يضيق ، وأن الكلام لم يعد سهلا عليه ، فتوقف وبكى . وانخرطت أنا فى بكاء طفلى غزير الشهقات ، فكان منظرا مؤثرا !!

ولم يكلم أحدنا صاحبه ، واستغرقت فى النوم .

واستيقظت عند الفجر على فمه يقبلني ، وكان يودعني بدعاء وهمس ولهفة ...

رجل ألفى نفسه — على حين بغتة — وحيدا بعد أن كان في زحمة الأسرة . وفرارا من الموقف تصنعت النوم ، حتى إذا ما سمعته يغلق الباب بكيت ووجهي مغطى باللحاف .

ورأيت زوج عمتي على مائدة الفطور وقت الصبح .

كان يعيش في بحبوحة ، تاجر عطور يبيع العنبر والعنبرول في دكان صغير جدا في حي السيدة زينب ، لكن علامات الثراء ظهرت عليه فجأة ولسبب غامض ، وتقول الناس الأقاويل ...

ورأيت عينيه المجهدتين الحمراوين ، وهو ينظر إليّ للمرة الأولى في بيته ، ثم قال وهو يبتسم وبصوت كأنه هدير :

— أى . هو أنت ؟!

وجفف وجهه بالفوطة . وجهه الأسمر الترابي الداكن الذي لا يدعو إلى الطمأنينة ، والذي يذكر فورا بوجوه المهربين .

وتناولت فطوري على مائدة شهية تدور حولها خادمة وعليها بيض وزبد وجبن ومربى وزيتون ولبن . كل هذا مع المدمس فبهرني العز .. لكنني كنت أمد إلى الطعام يدا جعلها الخجل تتعثر بين الصحون .

ثم دخلت إحدى المدارس الابتدائية في حي السيدة ،....... وألفت الحياة في بيت عمتي ، ونسيت دارنا في القرية ، وكان أبي يأتي لزيارتنا بين حين وحين ويحمل هدايا ريفية من البلدة التي يسكنها ، وقد سره أنني تلميذ ناجح ، ورأى في ذلك عوضا له عن

حياة اعتبرها تالفة .

ولم أكن أرى زوج عمتى كثيرا ، وقليلا ما كان يتعشى معنا ، وكان لا يعود إلى بيته إلا فى وقت متأخر من الليل وينهض باكرا فى الصباح ، وهويشكو الصداع وقلة النوم ، ويسعل من أعماق صدره وهو واقف على حوض الغسيل ، وينظر إلىَّ اذا كنت على مقربة منه نظرة كنت أخاف منها ، مع ثقتى بأنه يحبنى لأننى آنست وحشة بيته ، لكن عينيه كانتا دائما حمراوين فيهما عصبية ونفاد صبر . لذلك كنت لا آلفه .

وكان يحب عمتى ويأتمر بأمرها ، ولا يطيق غضبها......... كانت سحرا بالنسبة إليه . وكنت ألاحظ ــ حتى فى الأوقات التى كان يبدو فيها فى قمة غضبه ــ أن ثورته تخمد تماما اذا بدأت ثورة عمتى فى الهبوب ... ريح أقوى من ريح .

وقبلنى الرجل ذات مساء ، وأعلن أننى« وجه سعيد » بالنسبة إلى السوق ؛ فقد تحسنت أحواله جدا ، وقد وقع اليوم عقد شراء وأصبح هذا البيت (ودق برجله على أرض الغرفة) ملكا له . ومن أول هذا الشهر سيحصل الإيجار من السكان .

وأحسست بفرح غامض كأننى اطمأننت على مصيرى ، وتذكرت فى الحال فوزية ؛ بنت عمر افندى المدرس ، وأننى سأدخل السلاملك عندهم فآخذ منهم الأجرة وأعطيهم الوصل ، وأننى سأكبر فى نظر فوزية ويزداد حبها لى .. خيالات صبيانية !!

ولم يكن أبى يقول لى شيئا عن إخوتى الذين هاجرو إلى قرية بعيدة ، ولكننى تعرضت فى يومين متتاليين لشيئين هزا قلبى

وقلقلانى بعنف : أولهما أننى رأيت أبى وهو يسلم على زوج عمتى فلم يعجبنى سلامه ، كان أبى — فى جلبابه الصوفى البنى الذى لا يتغير — منحنيا بقامته القصيرة أمام صهره الطويل . فكان« ذل » شبه راكع أمام« عز » منتصب القامة عليه معطف أسود غالى الثمن ، وفى يده عصا وسبحة ويفوح من أعطافه مختلف العطور .

وتذكرت أن أخت هذا الراكع تصرخ أحيانا فى وجه هذا الواقف فى اعتزاز ، فينكمش فى ذل .

وفسرت الأمر بأنه« الحاجة المرة » .

أما الشىء الثانى الذى تأثرت له ، فهو أن عمتى أخبرتنى بعد سفر والدى أن أختى الطفلة الصغيرة قد ماتت وأنه لم يبق مع أمى إلا الولدان . فسرحت كأننى أسمع بكاءها فى الظلام ؛ هناك فى القرية بعد أن تخطيت الأم أجسام أولادها النائمين ، وخرجت .

لكننى حين رأيت على شفة عمتى بقايا اشمئزاز لم أفطن إلى أوله . فهمت ما كانت تقصد أن تقول : كانت تريد أن تقول إن هذه البنية لو كبرت لورثت أمها ، وهى تحمد الله على أن المنية عجلت بها ، فبكيت . لمن ؟ لست أدرى !!

كنت فى بعض الأحيان أحس بشبه تذمر يغمر عمتى ، لأنها تؤوينى ، بالطبع ، فى بيت رجل غريب ، وبقوة سلطانها وخلو البيت من الأولاد ، كنت أعلم أننى أقيم عندهم ، لكن هذا شذوذ عن القاعدة ، فلا عجب إذا كانت عمتى تتذمر أحيانا .

والنجاح يحفز على مواصلة السير ، وانتقالى مرحلة بعد مرحلة

بتفوق وتوفيق ، جعل أبى يأمل أن يرى النور ، وعمتى تصبر على تربية هذا« الدمل » يعنى أنا ، كما كان لى بالتالى أمل عذب فى أن أكسب وأن أحب وأن أتــزوج . وكـــانت« فوزيـــة » تلـــون حياتى ــ على الرغم من بخلها ــ بألوان زاهية ، وتسدل على مخدع المستقبل ستائر من المخمل .

وأحسست بحنين نحو أخوى ، فجاء بهما أبى إلى القاهرة مرة ، فرأى بعضنا بعضا ، ثم عادا إلى المنفى .

كان بينى وبينهم اختلاف شديد ، كنت أحس الفرق ضخما بين طريقة كلامى وشربى ومشيى ، وطرائقهم هم واختلاف المذاهب يخلق نوعا من الغربة ، تمنيت يومئذ أن لم يكن خالط قلبى .

وسمعت سيرة أمى طوال هذه الزيارة . لكن البعد يخلق السلوان . خصوصا فى هذه السن المبكرة التى نكون فيها فى ليونة طينة الصلصال .

وتغير شكلى وقوامى بفعل السنين ... طال عودى وامتد فى نحافة وعدم تناسق ، حتى كنت أنظر إلى أبى وعمتى وفوزية من العلياء وألقى شيئا من السخرية ، وبتقدم السنين كذلك أصبحت طالبا فى السنة النهائية بمدرسة الصناعات ، وأصبحت أحلام المستقبل على وشك أن تلبس جلابيب الحقائق ، وكنت مصمما بينى وبين نفسى على أن أعيد النظر بقوة فى المأساة التى لحقت بيت أبى .

لكن ...

من المحال أن يخلو الطريق من العثرات .

وقد كانت العثرة هذه المرة مكتوبة على خطواتى :

دخلنا الامتحان التحريرى للشهادة التى تسمى« دبلوم الصناعات » ، وأنا طالب مجتهد أتعلق بالتعليم ، كما يتعلق الغريق بطوق من الفلين .

وسارت الأمور على ما يرام ، حتى كان يوم من الأيام .. جعلنا نجيب عن الأسئلة والصمت مخيم على المكان ، و« مراقب اللجنة » واقف ينظر إلى الطلبة بعينين تشبهان عين النسر ، ثم يتغاضى وينظر من الشباك .

وكنت فى الركن الأقصى من المكان ، وإلى يسارى طالب مهمل كان يغتنم فرصة انشغال« المراقب » ويهمس لى طالبا« كلمة » .

ـــ كلمة لله يا عوض .. أنقذنى .. كلمةلله .. يخرب بيتك .

ويصر على أسنانه ، ويعض على شفته ، وهو يكاد يبكى .

وألقمته كلمة فى غفلة من المراقب ، فانفتحت شهيته للغش .. ثم زجرته فلم ينزجر ، واستغل فى حيائى الذى كنت أشبهه بحياء امرأة تستسلم لما يفعله رجل مجهول لأنها مكسوفة متورطة تؤثر الصمت . وانتهز الطالب هذه الفرصة فاستبد بى .. وعلى حين غفلة منا وقعنا فى قبضة المراقب متلبسين بالغش ؛ فقد كنت أكتب له شيئا على النشافة .

جربت يومئذ موقف الذين يساقون إلى الموت فتبدو لهم أشباح الناس والكائنات وكأنها منفصلة عنهم لاتربطهم بها علاقة ،

والخدر الذى يلحق الاحساس فيشل اللذة والألم على السواء .

وخرجت مطرودا محروما . دورى فى العام المقبل إذا عشنا ، وعلى عمتى وزوج عمتى وبيت عمتى أن يؤوينى عاما آخر . يا سلام !!

ورأيت النيل يناغينى ، فأقبلت عليه ، وخيل إلىَّ أنه يفتح لى ذراعيه ، ثم استكبرت أن أموت كافرا ، ولعلى خفت من الموت فالتمست للحياة عذرا !!

وسرت أضرب فى الشوارع لا أدرى إلى أين أذهب . وأحسست بالجوع — وذلك غريب — فاشتريت شطيرة وسرت آكل فيها ، وتبعنى كلب ضال فألقيت إليه بلقمة ، ثم تبعنى وكأن فى عينيه دعاء ، فألقيت إليه بالباقى ، ثم سرت أتلمظ .

قلت بينى وبين نفسى ؛ وكأننى صرت أحد الشعراء « الكلاب الضالة على الأرض أنواعها كثيرة » .

عرفت أننى بعيد جدا عن البيت حين أفقت من ذهولى على صدمة فى عمود نور ، وصلصل رأسى بالصدمة وكأنه كرة من النحاس ، فقررت — كأنما هذا بسبب الصدمة — أن أسير نحو البيت ، وليكن ما يكون .

وابتسمت لى فوزية عند مدخل السلاملك فلم ألتفت إليها . أشياء كثيرة فى الدنيا تأتى فى غير أوقاتها .

وصعدت السلم وقلبى يدق ، ورأيت باب الشقة مفتوحا ، فدخلت . وكأنما كانت عمتى مستيقظة من النوم فورا ؛ لأن وخما شديدا كان على ملامحها ، كانت فى الصالة تلقى على الخادمة أمرا ساعة رأتنى .. عليها قميص حرير أبيض ؛ يمسك جسمها

وينجر على كعبيها ، ويكشف عن صدرها وعضديها ، كأنها لم تكن تتوقع أن ترى أحدا .

وحملقت مذهولة بعد أن فحصت وجهى ، ثم أمسكت برسغى ، كأنها تجس نبضى ، وقادتنى الى حجرة وجلست وتركتنى واقفا ، ثم سألتنى :

ــ مع من تشاجرت أيها المجنون ؟

فأجبت وعينى إلى الأرض :

ــ لم أتشاجر مع أحد .

فقالت بحدة :

ــ إذن فهل ضربت نفسك بنفسك ... هذه أشياء تدعو إلى الموت وتقصر الأجل ... ما هذا ؟!

ووقفت أمامى ورفعت ذراعها العارية الملفوفة حتى لمست جبينى ... كان هناك ورم فى حجم اللوزة وعلى هيئة نجم فى جبهتى عندما صدمنى العمود ، لكننى لم أشعر به . ثم استطردت عمتى :

ــ ولماذا عدت باكرا هكذا ؟

فهزنى السؤال حتى كدت أسقط على الأرض ، ولم أرسل إليها بصرى بعد أن عادت إلى جلستها ووضعت ساقا على ساق ، وجاء صوت من الحارة ينادى على الملوخية فى الوقت الذى نفد فيه صبرها وصرخت بأعلى صوتها تطلب الجواب ، فقلت باختصار :

ــ طردت ...

ــ طردت ؟ .. طردت ؟ .. طردت ؟ لماذا؟

هل كنت تقول الحقيقة لو كنت مكانى ؟ ما جدوى تصريحنا

بالحقائق اذا لم تكن نافعة ولا قادرة على تغيير موقفنا خصوصا عند الذين نكون فى حاجة إليهم ؟

فلم أرد . فأجابت هى :

ـــ غشاش ؟

فلم أرد . فصرخت :

ـــ تلعب طول العام وتغش فى آخره .. هل كنت تغش ؟

فأومأت برأسى :

ـــ نعم .

وقالت كلاما كثيرا وهى تلف فى الحجرة ،وتهز أردافها وقبضتاها متكورتان . لكن دموعى كانت كثيرة وعيناى اللتان عميتا من الدموع كانتا متجهتين إلى حذائى الضيق الذى يخنقنى والذى خلعه على زوج عمتى التاجر .

ثم جلست وهى تلهث . ثم وجهت إلىّ سؤالا غريبا :

ـــ ولد. هل تعرف ابن من أنت ؟

قلت بانكسار :

ـــ نعم .

ـــ هيه . ابن من ؟ قل .

ـــ إنك تعرفين أبى . إنه أخوك .

فخبطت بكفيها على فخذيها كأنما خاب ظنها فى الجواب ، ثم قامت إلى الحجرة لتلفها من جديد ، ثم عادت لتقول :

ـــ أنا لم أسألك عن أبيك . أنا أسألك عن أمك . هل تعرف ابن من أنت ؟ الغش وراثة. يا غشاش .

وانسحبت فى صمت أمشى فى حذائى الضيق إلى الحجرة التى

تؤويني . ثم بكيت ، أما أبى عندما جاء وعلم بالموضوع ، وقد كان على غير ما توقعت ، كان واثقا فى كل ما نقلته إليه ، وصارت قضيتى على قدمين لابأس بهما ، لأنهافى هذه المرة كانت فى ساحة إنسان . حاجتى الطبيعية إلى المعونة التى يقدمها إلىّ ...

ولست أنسى لزوج عمتى هذا الفضل . قالها كلمة واحدة حين علم بالمأساة .

ـــ كل الدنيا غشاشة ياابنى .. صبرك بالله .

وضحك بكل وجهه ، حتى بعينيه الحمراوين ، وهو واقف يسعل على حوض الغسيل من أعماق صدره . على أن العام انقضى والسلام ، وسافرت إلى أبى ـــ فجأة ـــ فى المحطة الصحراوية ، وهجمت عليه أقبل يده وأخبره أننى نجحت . وانتهى الإشكال .

فرمى الرجل قلنسوته الصوفية على الأرض من شدة الفرحة ، وأخذ ينادى على زملائه بطريقة تدعو إلى الذعر ، حتى جاءوا ، فقالوا :

ـــ حرام يا شيخ . ظننا حريقا شب فى المكان .. لكن .. ألف مبروك !

وأطفأنا الحريق« بالشربات »والشاى ومشروبات أخرى .

وبدت لنا جزيرة خضراء فى خضمنا المائج ، وبات أبى يحلم .

أما أنا فقد أنطفأت الفرحة فى قلبى بعدما علم أبى بالخبر كأنما انتقل إليه كل شىء ، وبكت عمتى وهى تودعنى . بكت بحرقة لأن الألفة تصنع العجائب . أما زوجها الساكت الغضوب ذو الوجه الأسمر الترابى ، فقد ودعنى بلطف وهو يقهقه :

ــ صرت رجلا يا عوض وخلاص ستتركنا ؟ عليه العوض .

ثم تغير المكان ...

واستقررت فى أحد مصانع كفر الدوار ، وألفت أسرة صغيرة .

سكنا حجرتين فى الحى الشعبى ، وانتقل معى أخواى الصغيران إلى المدينة ، ودخلا المدرسة هناك ، وأصبحت الحياة حلوة المذاق إلى درجة لا توصف ، خصوصا فى الليالى التى كان أبى يأتى إلينا فيها حاملا هدايا من الريف وحبا ونقودا .

ونلتف نحن الأربعة حول الطعام ونأكل ونثرثر .

وتذكرت فوزية ذات مساء . فى ليلة كانت خصيبة فى حياتى كنت أحس كأن قلبى شيئا نشيطا . لست أعرف كيف أصفه .

كان ــ مثلا ــ أشبه بحوض صاف تجرى فيه سمكة مرحة ، وكأن حياة دافقة تنصب منه وتعود إليه ، وكان فى يدى مجلة وعينى على قصة حب ، والولدان نائمان ، وأبى جالس يفتل شاربه ، وإذا بى أسأله فجأة :

ــ أبى ... ألا تريد أن تتزوج ؟

خجلت من نفسى ، وكأنما حدثت فرقعة غير منتظرة من إلقاء هذا السؤال ؛ ففتح فى عينيه ، على حين وقف إصبعاه على الشارب الذى يفتله ثم ضحك ضحكة الذين يباهون بأنهم أذكياء ، وقال :

ــ أى الاثنين تقصد ؟ أتريد أن تتزوج ، أم تريد أن أرد أمك إلى عشرتى من جديد ؟

فارتبكت وساد صمت سمعت خلاله أحد الولدين يستعيد وهو نائم بعض ما أخذه فى المدرسة وقت النهار . فانبرى الرجل يعلق على

الموضوع :

ــ عوض هل تسمع أخاك ؟ إنه يتكلم بما فى نفسه .. آه .. كأن الناس لا ينسون حتى وهم نائمون .

ــ آسف يا أبى . أنا آسف .

ــ أبدا . لا داعى للأسف ، تزوج إن شئت ؟ لكن .. أليس من الممكن أن تعاوننى على تربية أحد أخويك ؟ واحد فقط !! إن عمتك عاونتنى وهى فى بيت رجل أجنبى عنا . وكل ذلك من أجل الولدين .

وأطرق وسكت ، ودخلت قطة تتلكأ وتتمسح فى الجدار كأنها تريد أن تسرق ، فنظر إليها ، وكأنما ذكر حركة زوجته ، ثم قام فأطفأ المصباح بعد أن طردها . وفى الظلام ونحن مستلقيان بدأ يحكى كأنه لم يجرؤ على أن يفعل ذلك فى النور :

ــ بعد أن مات أبوها تركها فى كفالة أبى ، يعنى جدك ، وكانت وسيمة مليحة لكنها عميقة لا يعرف سرها ؛ ووجهها جميل ونفسها مثل الخرابة ، وكان أبى يقول لى دائما إنها زوجة المستقبل وكان ذلك طبيعيا ، يتيمة فى بيت عمها ومعها شاب . فلماذا نربيها لغيرنا من الناس !!

وكنت أحبها .. لا تتألم فهى غريبة عنا الآن . ولكنى ما كنت أعلم أنها تحب إنسانا غيرى ؛ شابا لا يملك إلا ملابسه النظيفة ، أوقاته مقسمة بين السطو واللصوصية والجرى وراء الصبايا وكان سعيد الحظ معهن مع أنه شرير . وكنا إذا خلا بنا المكان أنا وهى ، وبدأت أكلمها على استحياء كلام من يحب ابنة عمه أعرضت عنى ونهرتنى

مرة فلطمتها دون أن أشعر ، ولكن ذلك لم يوقف المقادر ، فتزوجتها في ليلة شاتية .

وكان خضاب الحناء لا يزال على كفيها حين استيقظنا على صراخ وصفير ، ثم علمنا أن أحد رجال القرية بات قتيلا بطلق نارى أثناء معركة ، واتهم فيه هذا الشاب المغرور ، ورأيت كمدا على وجهها ولكن فرحتي شغلتني عن كمدها ، وقبض عليه وز ج في السجن وغاب في ظلماته سبع سنوات .

ثم تغيرت الدنيا فأصبحت أنا عاملا في مصلحة السكة الحديد .. وأصبحت أما لأربعة . تملك دارا مستقلة بالقرب من الحقول ، وزوجا أصبر من الجمل ، ووجها حلوا ونفسا في مثل خراب المقابر .

وخرج السجين من سجنه ، وكنت غائبا عن قريتي تقريبا ، كما تذكر فإنك لم تكن طفلا . حتى كانت ليلة .. شاتية موحلة سوداء .

وسكت ، فلم يتكلم ، ولم أجرؤ على أن أستزيده من الحديث كان شيئا شائكا ومن غير الممكن أن يسترسل فيه أكثر مما استرسل ، غير أنى عدت إلى الماضي وحدى وبدون إرشاده ؛ لأنني أعرف الطريق حتى خيل إلى أن أختى الطفلة ستستيقظ من النوم ، وسأضعها في حجرى وهى تبكى في ظل المصباح المعلق على الحائط ، وسأنام حتى تصطدم ذقني بأعلى رأسها ، وأن أمي ستدخل وتخلع جلبابها الأسود فإذا ما سألتها أين كانت ، كورته وقذفتني به في وجهى فيسود الظلام من لفح الهواء وانطفاء النور ، ثم ترقد وهى تدمدم وتسب ناسا كانوا السبب . هيه لقد عرفتهم أخيرا .

ولم يتكلم أبى ، ولم يكن نائما . سمعته يفرقع أصابعه ويتنهد ، وذكرت الليلة الهائلة التى جاء فيها فلم يجدها ، وحمل القصب الذى كان يحمله ، والماء الساخن الذى وضع رجليه فيه ، وجلسته المغلوبة ، ورأسه المحمول على كفيه ، وشعره الطويل ، وفمه ذو الرائحة المتغيرة ساعة انكفأ على ليوقظنى ، والضرب والشتم ، وخروجها من البيت ... وبكاء أبى أمام الحجرة بعد أن خربت الدار .

وانتظمت أنفاسه فى النوم ، وبقيت ساهرا أتخيل .

هناك فى الحقول كان يلقاها ، ما أبشع ذلك !!

ثم بذر فى نفسها الحقد والكراهية لرجل يرعاها . هل هذا وضع طبيعى أن تكون بقرة بين رجلين .. يطعمها واحد ويحلبها الثانى ؟ يأخذ الأول العناء ويأخذ الأخير اللذة ؟ هل هذا عدل ؟!

حقيقة أن أبى رجل غير جميل ؛ كان يدخل علينا فى أخريات الفترة التى يغيبها فى عمله أشعث أغبر كأنه راجع من الحرب ... لكن ...هل يكفى هذا عذرا لخيانة زوجية ؟ وإذا كفى فما ذنبنا ـــ نحن أبناءها ـــ حتى تخوننا ؟

أليس لتخطيها لصفنا المتمدد على الحصير فى ظلمة الليل وخروجها إلى الحقول داخلا فى بند الخيانة ؟

ثم قلت أخيرا : إن أبى على حق .. يجب أن تظل هذه المرأة غريبة عنا . ولكننى نمت وصورتها أمام بصرى فى الظلام منكفئة فى حزن ومذلة ، وثديها خارج من فتحة ثوبها ، وطفل يرضعه . ويخيل إلى أن هذا الطفل هو ... أنا .

وانقضى عام واحد على هذه الذكريات . عام ليس غير .

كنا فى البيت جميعا فى آخر النهار ، وكان الوقت صيفا والحر يخنق الأنفاس ، ساعة طرقت الباب يد خمنت أنها يد صاحبة البيت التى جاءت تطلب شيئا أو تنقل خبرا . وحين فتحت ، رأيت وجه امرأة لم أتبينه تماما ولم أعرفه لفورى ، فلما رأت صاحبته على وجهى دلائل عدم التعارف خنقتها الدموع ، وعند ذلك فقط ، فطنت إلى أنها أمى .

كنت واقفا فى فتحة الباب سادا له تقريبا . أما هى فكانت على بسطة السلم فى ثوب ريفى أسود أجرب . على صدره شريط مرصع بالخرز ، وتحت هذا الشريط مباشرة كان « النبعان » اللذان وهبا لى الدر ووهبا لى الحياة ، وأمامها حقيبة خشبية قديمة بنية ناصلة اللون مقفلة على حاجاتها ، ومن إحدى زواياها أطل شيء أسود ... لعله طرف طرحة أو طرف ثوب .

أما وجهها فقد كان غريبا ؛ كل عضو منه بقى فى موضعه من غير شك لكن هيئته العامة كانت غير جميلة ، وعليها كثير من شمس الريف وكثير جدا من سوء التغذية وشظف العيش ، فأدركت أنها كانت تشتغل فى الحقول ، وكفها حين صافحتنى كانت فى خشونة الليف ، وفوق حاجبها تماما أثر « بطحة » وفوق شفتها العليا آثار شارب ، وعلى جسمها كله آثار ذل . وكان الولدان يلعبان فى الداخل أو يذاكران . وأنا على هذا الوضع الذى وصفته . وأخيرا أفقت على قولها :

ـــ هل أدخل ؟

فوسعت لها الطريق فى صمت بحركة الآلة ، فانحنت على حقيبتها وحملتها ، ودخلت بها وهى منحنية قليلا .

وعندما رآها الغلامان صاحا في فرح لا يخلو من المفاجأة : « أما .. أما » ، وتعلق كل بذراع ، أما هي فقد أخذت تبكي .

تركتها مع الطفلين ، ولذت بالحجرة الأخرى وعلى رأسي شبه دقات المطارق ، وفي عيني دموع كثيرة .

ودخل المساء بليدا ثقيلا خاليا من المرح المعهود . فخرجت أضرب في الطريق الرئيسي الذي يصلنا بالإسكندرية تحت ليلة حارة وسماء لا قمر فيها . وكنت راكد الأفكار شأن الموحول الذي استنفد قواه فلم يبق له إلا أن يسكت .. وعندما عدت إلى البيت كان الولدان قد ناما . وكانت الأم ساهرة بالطبع ، وسألتها هل تعشت ؟ فأجابت بنعم .

ثم انخرطت في البكاء .

سألتها بعينين دامعتين ولهجة لا تخلو من التأنيب :

ـــ لماذا تبكين الآن ؟؟

ـــ أوان البكاء لم يفت بعد !

فتنهدت ولم أرد ، ثم قلت بعد برهة :

ـــ أعرف ذلك .

ـــ صحيح !

ثم قالت بعد سكتة :

ـــ إن أباك يأتي إلى هنا ؟ .. طبعا .

ثم ألهمتها غريزة حب البقاء طريقة جديدة للدفاع عن نفسها ، فتعرضت للماضي بادئة من النقطة التي تجعل القلوب في صفها هي ، فوصفت آلامها بعد أن تركت دار أبي :

لم يحتملها بيت خالها إلا ريثما مات خالها ، وبعد أن مات أحست بالغربة مرتين . كانت خادمة فى البيت وراعية فى الحقل ، وطاردتها اللعنة ، وصاحبها المرض وأخيرا ضاق بها هؤلاء الذين كانت تخدمهم بلا أجر ، وأغلظت لها إحدى نساء الدار القول ـــ ذات يوم ـــ وذكرتها بأشياء منها أن لها من بطنها رجلا يعيش فى بحبوحة فلا داعى لأن تشقى نفسها أو غيرها بطبيعة الحال .

وصممت على أن تخرج ولو أكلتها الذئاب . ورسمت خطة هى أن تعرج على ابنها أولا فى كفر الدوار ، فإن قبلها فى بيته انحلت المشكلة ، وإلا فإنها تواصل سيرها إلى الإسكندرية ، حيث تنضم إلى الجالية التى هاجرت من قرية خالها وأقامت هناك فى أكواخ « غيط العنب » ، ثم تزاول عملا من الأعمال التى تحتاج إلى أيدى النساء .

قلت لها فجأة بعد أن فرغت من قصتها بصوت متأثر :

ـــ أنت أمى على كل حال . هل يمكن أن تكونى غير ذلك ؟

قالت بنبرات مرتعشة وهى تنظر نحو حجرها ، وكأنها تخشى ألا أصدق :

ـــ أنت .. ابن .. حلال .

على أن الإشكال الحقيقى كان قائما فى التقاء الزوجين القديمين عندى . وإذا كان أبى قد اعتبرها امرأة غريبة عنه ، فإنه لم يكن من المستطاع أن أعتبرها امرأة غريبة عنى ، وإذا كان من العدل أن توقع العقوبة ، فليس من العدل أن توقع العقوبة مرتين . فليعاقبها ـــ إذن ـــ أبى وحده وقد عاقبها وانتهى الأمر .

قلت لأمى :

ـــ هناك شيء مهم : هو أنه يجب ألا تقابليه حتى أرسم لك خطة .

واتفقنا ..

وبقيت أنتظر ، ولكن أبى لم يحضر إلينا .

قلقت عليه ، وقلت فى نفسى : إن القلوب تخترق الحجب وتتطلع إلى ما ينتظرها فتراه فى شبه ضباب . لماذا لم يحضر ؟

كان الأولاد فى الخارج وكنت أنا فى الحمام أغتسل بالماء البارد من شدة حرارة اليوم ، وطرق الباب . وكانت أمى وحدها .. وطبيعى أن تذهب فتفتح ، وكأنها نسيت النصيحة ، ثم ماذا كانت تجديها النصيحة فى ذلك الوقت ؟!

ووقف الزوجان وجها لوجه بعد مرور سبع سنوات . كان هو خارج العتبة ، وكانت هى من الداخل ، يفصل بينهما متر واحد ، وحملق فيها بذعر ، وقال كلمة لم تخرج من فمه إلا بعسر :

ـــ هنا .. أيضا .

ثم استدار وهبط السلم . رجع من حيث أتى دون أن يلقى واحدا من أبنائه ، أو يلقى عليهم سلاما ، وحملت هى من على السلم الهدايا التى كان يصحبها معه مؤملا أن يقضى تحت ظلها سهرة سعيدة ، ودخلت دامعة العينين .

وخرجت من الحمام فرأيتها تبكى ، وعلمت ملخص القصة ، فلم أستطع أن أتبين أين حكمى : هل ألوم أبى ؟لا يستطيع أحد أن يجبره على شيء .

لكنى قلت لها :

ــ لا تبكى .

ــ أوان البكاء لم يفت بعد !!

ــ لكن ... لا تبكى أيضا . ألم أقل لك إنه من غير الممكن أن تكونى امرأة غير أمى ؟ لا تبكى إذن .

ثم استأنفنا حياة أكثر هدوءا ، واخترت المعسكر الذى أنحاز إليه .

وبعد بضعة أيام تلقيت من أبى خطابا فحواه :

أنه يشكرنى . ولو أنه تألم . لكن ... كان يعرف أنها أمى .

كل ما يرجوه منى ألا أنقم عليه فعلته ، لأنه لا يستطيع أن يحتمل فوق طاقته الشخصية ، على أن عملى وإن كان قاسيا بالنسبة إليه هو ، فإنه يدل على أننى ابن حلال .

وقلت فى نفسى ، وفى عينى دموع . لقد اتفق الاثنان على هذا . قالها أبى وقالتها أمى .

وأبلغنى أبى أنه بات ليلته فى فندق ، وأنه ظل يبكى طول الليل .

هل يعتبر نفسه « خرج من المولد بلا حمص » ؟ هل يتزوج ويعاشر امرأة أخرى وينجب أطفالا آخرين ؟ هو يظن أن الأوان قد فات ، وأن ولدا آوى أما لم تكن مخلصة ، لن يبخل فى المستقبل بالعطف على شيخوخة أب كان مخلصا مجتهدا .

وصف لى قهوة قريبة من الحى لألقاه بها أنا وإخوتى كل شهر مرة .

وصار يأتى إلينا كل شهر يحمل الهدايا والحب والدموع

والقبلات ، وكانت تأكل أمى من الهدايا فقط ، وكنت أنا وإخوتى نختص بالباقى .

وبعد أن قابلته على القهوة أول مرة . وتحدثنا فى الخطيئة ، وحللناها حتى وصلنا إلى نهايتها التى هى التوبة ... رأيت من أبى إصرارا على موقفه أن التوبة شىء والمغفرة شىء آخر .

وعندئذ عرفت شيئا لن أنساه :

« أن التوبة أرخص شىء يعطى ، وأن الغفران أعز شىء يمنح » .

حكاية كل يوم

حين دق الجرس فجأة فى إحدى المدارس ، تبدد السكون النسبى المخيم على حى المنيرة .

وتركزت الضوضاء كلها فى المدرسة . وبدأ البواب يدفع مصراعا فى أثر مصراع ، حتى اتسع الطريق لتلاميذ هذه المدرسة الابتدائية ، فجعلوا يخرجون متزاحمين متدافعين ... تمشى حركاتهم جنبا إلى جنب مع أصواتهم المتصاعدة فى اختلاط وجلبة .

كانوا على كثرتهم متفقين فى شىء واحد ... إلا ما ندر ، ذلك أن جزءا من أرجلهم يظهر عاريا ... من نهاية البنطلون القصير فوق الركبة ونهاية الجورب الطويل فى ثلث الساق ، أما بقية الأشياء فقد كانت مختلفة ... على صدر أحدهم « جرس » من الصوف أحمر ، وبنطلون رمادى ، وفى يده حقيبة من الورق المقوى ، تعوجت جدرانها من كثرة ما استعملها مقعدا لعدة دقائق كل يوم وهو فى طريقه إلى البيت .

ويلبس الثانى سترة واسعة تقول إنها كانت لأخيه الذى يكبره فى العمر والذى دخل المدرسة الثانوية ؛ معظم أزرارها متساقطة ، وإن

لم تبلغ حد الشيخوخة ، وكتبه تحت إبطه تطل من ثنايا أحدها المسطرة .

والثالث يلفت نظرك منه شعره الطويل ، المتدافع نحو الجبين في غزارة وسواد وفوضى ، تذكرك بأبناء الطليان أو الإغريق .

وبعد الأشخاص ... تأتى الأصوات !! نداء متواصل لا يكاد ينقطع « نبيل ... يا نبيل ... توتو ... محمود ، يا بو طويلة ، العبيط أهه .. طرزان .. شيتا » ثم دق على حقائب الكرتون ، وأبواق السيارات العابرة تعلو ملحة ؛ كأنها ترجو الصغار فى رفق أن يفسحوا الطريق . ونادرا ما تخلو أفواه راكبيها من الابتسامات ... من أجل هؤلاء الذين لا يعبأون بهموم الحياة !

والبواب فى صدع الباب منزويا على مقربة من الكشك الخشبى ، يرقب السيل الهادر الدافق حتى ينتهى ، ليقفل المصراعين .

وخدم على الرصيف يحملون الحقائب عن بعض التلاميذ ، وبعض أمهات وبعض آباء يمسحون شعر أبنائهم منذ أول وهلة ، وقد يقبلونهم ثم يأخذون بأيديهم عائدين إلى البيت .

وظل هذا المنظر ثابتا لبضع دقائق لا يتغير كأنه مطبوع على الشاشة ، ثم أدركه التحول الذى يدرك كل شىء ؛ فبدأ الرصيف أمام المدرسة يخلو إلى حد ما ، والشوارع المتفرعة من الشارع الرئيسى تبتلع الجمع قليلا قليلا .

وعادت إلى الطريق سيماه الأولى بعد أن خلا من تلاميذ المدرسة ، وبدأ الهدوء النسبى يلقى جناحا على حى المنيرة مرة

أجرى ، وعاد البواب فأقفل المصراع الثانى لأن أمرا كان قد ألهاه بعد أن دفع بالمصراع الأول فغاب قليلا ثم عاد ، ولما التقت حافتا المصراعين فى ارتياح يدل على الإحكام أدار فى القفل مفتاحه الضخم ، ثم أطل من بين القضبان ، وهز رأسه يمينا وشمالا فى حركة هادئة ؛ كأن شيئا يؤسفه ، ونظر إلى السماء التى بدت فيها تباشير المطر ، ثم غاب عن أنظار من فى الشارع .

كان هناك على الرصيف الثانى المقابل للمدرسة رجل شهدت عيناه كل هذه المناظر . من بدئها حتى انتهائها .

قد كان ينبغى له أن يتحرك بعد أن أقفل الباب ، وبعد أن رأى البواب يلقى عليه نظرة من خلال القضبان فاحت منها رائحة الأسف ، ولكنه لم يفعل .

وكانت نسمة باردة تداعب أطراف سترته الواسعة الطويلة المكسرة التى تبدو على جسده النحيل ، كأنما يستعملها للنوم ، أما عيناه فكانتا تجولان فى الشارع ، كأنه يستغرب ما حدث ، وكأن الذى جرى لم يكن متوقعا ... ثم كفت عيناه عن الدوران حيث ثبتتا على المدخنة الطويلة السوداء المسامتة للجدار الأصفر فى صدر المدرسة ، والمنتهية بعدة أمتار بعد انتهاء البناء ، والتى لمعتها رطوبة الجو . ثم انتقل ناظراه إلى صف الأشجار المتشابه الوحدات على الرصيف ، والذى لمعت أوراقه بعد أن غسلتها السماء بسحابة صغيرة ، ثم ثبت من جديد على إحدى الشجيرات .. ووقف عندها طويلا !!

كانت مشلولة ... جافة عارية من الورق ، وإن كان جيلها الذى زرعت معه لا يزال فى عهد الشباب ، وغسل المطر فروعها الجرداء

فبدت بيضاء كأنها عفرت بالجير .. ثم جعل الواقف يتساءل عن الكارثة التى حاقت بها فآلت إلى هذا المآل ، فلم يهتد إلى رأى .. فحول فكره إلى شيء آخر هو أن مصلحة التنظيم كان يجب ألا تهملها .. يعني يجب أن تقطعها !!

وعاد البواب فأطل من بين القضبان وألقى نظرة على الشار ع ، ثم عثر نظره بالواقف ، فهز رأسه يمينا وشمالا في حركة بندولية آسفة قبل أن يغيب فى داخل الحوش .

ورأى الواقف هذه النظرات المصوبة إليه من بين الحديد ، ولكنه لم يهتم لها ، بل ظل في مكانه يتأمل المدخنة ، والأشجار ، ثم الشجرة الجافة .. وأخيرا أرض الشار ع التى بدأ أسفلتها يبرق من رذاذ خفيف .

كان ينتظر تلميذا ، وقد خرج كل التلاميذ ، لكنه لم يخرج . هل هو معاقب بالحبس ؟ .. لا .. مطلقا .. فقد ولى الزمان الذى كنا نعاقب فيه بالحبس وبالركوع على الحمرة ..

إنه غائب ما فى ذلك شك !!

وبدأت الأصوات التى سكنت منذ ربع ساعة تنبعث من داخله من جديد .. وخاصة ما كان منها نداء متواصل الحلقات : « نبيل .. يا نبيل .. » إن نبيل صديقه وقد خرج اليوم بدونه .. و «توتو».. لقد عرف عن طريق الغايب أن « توتو » هذا ابن أحد ضباط البوليس ، وقد كان يحكي للتلاميذ كثيرا من العجائب والخفايا الذى يلقاها أبوه فى حياته اليومية .

وأخذ الرذاذ يتحول إلى حبات أكبر ثم إلى أخرى أكبر من الأولى ، حتى ألجأ الواقف إلى أن يتحول عن هذا المكان ..

« من الجائز أن أراه فى اليوم التالى » ..

هذا هو ما خاطب به نفسه عندما دهمه الشوق إليه .. وحين دق الجرس فجأة فبدد السكون النسبى المخيم على حى المنيرة ، كان واقفا على الرصيف الثانى فى اتجاه الباب ، وبدأ المنظر يتكرر ؛ والجمع يتدفق . نفس الأشخاص ونفس الأصوات : « نبيل .. يا نبيل .. توتو .. محمود .. يابو طويلة » . ولكنه اليوم لم يخرج كما حدث أمس .. ومر نبيل من جواره ، فألقى على وجهه نظرة عجلى وهو يرفع رأسه جدا إلى السماء . ثم انصرف دون أن يقول له شيئا ، فأخذ الرجل يسأل نفسه : هل هو معاقب بالحبس ؟ قلنا : لا ... وهذا غير ممكن .. إذن هو مريض . أجل لعله مريض ...

ثم هز رأسه فى أسف ، على حركة من أعلى إلى أسفل كالحركة التى تؤمن على الحديث . ولما نظر نحو الباب رأى البواب مطلا من بين القضبان وهو يحرك رأسه فى حركة بندولية من يمين إلى شمال ، والأسف ظاهر فيها ، فشعر الواقف بشىء من الخجل فأخذ طريقه نحو البيت .

لكنه فى اليوم الثالث قلق فى الميعاد ...

ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا إلا أن يذهب .. نعم ، لم يكن يستطيع لأنه يريد أن يراه ، وتكرر المنظر ، وتدفق الجمع ، وتعالت الأصوات ، وعلق ناظراه بالتلاميذ برهة حتى غابوا ، وساد السكون وأطبق على الحى صمت غير عادى ؛ لأن اليوم شديد البرد ، حتى أن التلاميذ كانوا يجرون وهم يوحوحون في حركة لم تخل من مبالغة يريدون بها أن يضحكوا أنفسهم ...

وبدت المدخنة فى صدر البناء اليوم شيئا أكثر سكونا ودكنة وسوادا ، والشجرة الجرداء العارية من الورق ظهرت كأن نهايتها الأخيرة فى هذه الليلة ، وأن مصلحة التنظيم اهتمت بأمرها فهى ستنشر ساقها فى الصباح :

وسأل الواقف نفسه فى هذا اليوم :

« لماذا لم يخرج ؛ هل معاقب بالحبس ؟ » قلنا : لا .. وهذا غير ممكن .. إذن هو مريض . ولماذا يكون مريضا فحسب ... لماذا ... لماذا . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. لماذا لا يكون .. مات ؟! ..

وسكت ... ثم قلب بصره فى الشارع الخاوى فلم يقع على أحد .. إلا البواب ، وكان يفعل نفس الحركة ... فنظر الواقف إليه ... ثم إلى المدخنة السوداء ... ثم إلى الشجرة العارية من الورق ثم سار مطرقا نحو الأرض ؛ لكن عينيه كانتا تذرفان الدموع .

ولم يعد الرجل فى اليوم الرابع ولا الخامس ولا السادس ... لم يعد إلى الأبد ؟! وليس معنى ذلك أن المنظر تأثر بغيابه ... بل إنه ظل كما هو .. نداء وصياح ودقات على كرتون الحقائب ...

لكن البواب في اليوم السابع نظر بين القضبان ، ثم دخل ، وقال لزوجته :

ــ خلاص .. ما عدش بيجى بأه ...

فردت عليه قائلة :

ــ تقصد أبو فتحى ؟ أبو التلميذ اللى مات ؟ . عليه رحمة الله !!

الشفيع

لم أطق البقاء فى مدينة طنطا ، فصممت على الخروج والعودة إلى قريتى .. وكنت قد دخلتها قبل ذلك بساعات ، لكن كل شىء كان مزعجا ...

وأنا نفسى كنت منقبض الصدر ، فخيل إلىَّ أن شوارعها ضيقة مفرغة من الهواء ، وأن جميع زوار « السيد البدوى » المائجة فى فجاجها ، كائنات غريبة لا تربطنى بها صلة ما .

كمن قد دخلتها فى وقت باكر من نفس المساء ، بروح طيبة وشهية مفتوحة ، وقصدت فورا إلى منزل أصهارى ، مؤملا أن أقضى مع خطيبتى وقتا سعيدا ، فوجدت حماى وحماتى قد سافرا ليقضيا عند ابنتهما في المحلة ليلة أو ليلتين ، واصطحبا معهما خطيبتى . ولم يكن متوقعا لديهم أننى سأزورهم ؛ لأننى قد رأيتهم منذ عهد قريب .

وكان من الممكن أن أقضى الليلة فى منزلهم ولو أنهم غائبون ؛ فهناك خدم وأطفال ، ووسائل راحة . لكننى رأيت ذلك وكأنه عبث ، وقررت العودة ، وتعلق بى الصبيان يستحلفوننى أن أبقى ... لكننى قبلتهم ، وخرجت . وشققت بالسيارة جموع الفلاحين بصعوبة ، وكانوا ينظرون إلىَّ بوجوه فرحة سكرى بخمرة « المولد » . ولما وصلت إلى الطريق الرئيسى خارج المدينة

تنفست الصعداء بعد أن صافح وجهى نسيم الليل الندى المنعش .

وصافحتنى معه أفكار كثيرة ، وانزلقت إلى قلبى عدة وساوس كان أصغرها كفيلا بأن يقلق ، والصمت مزرعة خصبة تنمو فيها كل فكرة . وكان صمت الحقول على الجانبين موحشا ، والترعة راكدة ، وليس هناك ما هو مؤنس إلا نور السيارة المترقرق على أديم الأرض .

والأزيز رتيب ، والأرض شبه مستوية ، والمنظر متشابه وليس معى من يحدثنى . فانخرطت فى الأحلام .

ـــ ماذا لو توقفت المحركات فجأة . إن مرور المركبات نادر على هذا الطريق الفرعى ، فماذا أعمل إذا ما أصاب سيارتى خلل ما ؟

وهززت رأسى غير راض عن الإجابة ، وعاد الأزيز يملأ سمعى ، وسقطت قطعة من الطين كانت معلقة فأحدثت فى الماء هزة ما لبث الليل أن ابتلعها ، ثم وثب إلى ذهنى سؤال آخر :

ـــ ماذا لو غلبنى النوم وأنا فى مكانى من عجلة القيادة ، فاستيقظت وأنا أنحدر نحو الماء أو نحو المزارع المنخفضة .

وهززت رأسى مرة أخرى غير راض عن الإجابة ، وبدأ البعوض يتكاثر فى منطقة النور ـــ عند مقدم السيارة ـــ دقيقا منتشرا كأنه ذرات التبن .

وسمعت نباح كلب فى كوخ بعيد كان متواريا فى مزارع الذرة ، ثم وثب سؤال جديد :

ـــ وماذا لو اعترض سبيلى بعض قطاع الطريق وأنا وحيد والدنيا ليل ؟

وفى هذه المرة بدا السؤال وجيها ، والجواب كريها ، والمخاطر أكثر توقعا . فشرعت أرسم الخطة : فقررت أن أكون صاحب الضربة الأولى ؛ فأنا أملك سلاحا . « إن كنت حكيما فلا تترك لغريمك فرصة يفكر فيها . اذا عجزت عن شغله بالضربات المتوالية فأشغل فكره ـــ على الأقل ـــ بما تثيره حول الضربة التالية من خيالات » .

هأ هأ هاء ...

وهكذا وجدتنى أضحك بصوت مرتفع وأنا وحيد . ونحن فى وحدتنا ننكر أصوات أنفسنا ؛ حتى لكأننا نسمعها للمرة الأولى . فكأن أصواتنا قد خلقت ليسمعها غيرنا ، أى أنها ليست أشياء شخصية ؛ ولم أتذكر أين قرأت هذا الكلام عن الخطط ، لكننى عدت فتيقنت أن المهاجم يملك ظروفه أكثر من المدافع ، وأن الذين يقطعون الطرق على المارة لايكونون أقل من اثنين .

ونظرت فى عداد المسافات فإذا بى قد قطعت خمسة وعشرين كيلومترا .. وعرضت لى فى الطريق رقعة فسيحة كأنها ميدان ، فهممت أن أدير العجلة وأعود إلى الوراء . إلى طنطا مرة أخرى . لكن شجاعتى احتجت على مخاوفى وكبر على أن أفعل ذلك .وغابت عن ذهنى حكايات اللصوص بعد أن قررت خطة قصيرة واضحة مسالمة ؛ هى أن أعطيهم كل ما معى ، ثم أرجوهم إطلاق سراحى ، وسأقول لهم كلمة واحدة قد تثير ضحكهم ، والضحك يستتبع الرقة كما أن الدمع يستتبع الشفقة . سأقول لهم :

ـــ أنا عريس . سأزف بعد أسبوع واحد ..

سيذكر كل منهم ــ أو بعضهم على الأقل ــ ليلته الأولى والذكريات التى سبقتها . وإذا كان ممن تزوجوا على غرام فلا شك أنه كان يخاف أن يموت قبل أن تصبح الحبيبة زوجة . ولن أقول لهم عن مهمتى شيئا حتى لا أذكرهم بقوة القانون . أنا سواق وهذه عربة سيدى . طيب وهيئتى ؟ والأوراق التى أحملها ؟ .. أوه . ليس عندهم وقت .

وبعد هذه الخطة القصيرة غابت عنى حكايات اللصوص ، لكن ذهنى لم يلبث أن استحال مسرحا لخواطر أخرى لذيذة معلقة كأنها هرش على جرب .

فذكرت حكاية الجنية ذات العين الفسفورية التى تجلس جنب السبيل تحت شجرة ورقاء مظلمة ، وعلى يمينها طفلة ، وعلى يسارها قفة .

إن سائقى السيارات كانت تتجمد أيديهم على عجلة القيادة عندما كانوا يسمعون صوتها .

وهكذا أحالتنى الوحدة إلى طفل مشتعل الخيال مسافة غير قصيرة ، وهدأت خواطرى نوعا ، ثم عاودنى الركود ، فأرضت إلى أزيز المحرك حتى بدت لى على الطريق شجرة جميز عجوز تطل على كل الأشجار بضخامتها وكأنها أم ــ وتذكرت أننى رأيت ــ ذات مرة ــ سبيلا تحت الشجرة فيه زيران وكوز من الصفيح . وكانت امرأة تملأه يومئذ ساعة الظهيرة وتدردب الماء من البلاص وهى واقفة . وتخيلت شيئا غريبا هو أننى سأرى عند مرورى عليه امرأة طويلة جدا ، نحيفة جدا ، تحمل بلاصا ضخما كأنه صهريج وتدردب الماء منه فى السبيل . وهى طبعا لن تكون

إنسية ...

ولم أستطع أن أبتسم ولا أن أمنع القشعريرة التي تمشي في كياني وحاولت أن أصفر لحنا فلم أجد ريقا يساعدني . كنت كأنني سائق من الشمع . وتخيلت وأنا أقرب من السبيل في منطقة ظلام الشجرة أن شيئا ما يعترض طريقي ، وأنه عما قليل ستنبعث من على يساري من المزارع أصوات مفزعة شوهاء تقول لي : قف .

وحاولت أن أزيد السرعة ، لكنني عدلت . كنت أحملق أمامي لأرى جيدا فأفرق بين ما عشت فيه من وهم ، وبين ما يبدو أنه حقيقة .

كان السكون يطن في أذني — أو تطن به أذني — بشكل ثقيل ، والطريق أكثر ضيقا ، والأرض أغزر ترابا ، وزمر الحلفاء تقوم على ضفاف الترعة ، والأرض الزراعية منخفضة بما يقرب من طول أعواد الذرة النامية فيها ، ورأيت بعين اليقين سلسلة من الحديد قد شدت إلى شجرتين ؛ فاعترضت طريق مروري ، وأشباحا مختلفة الطول تصعد المنحدر إلى الطريق في سرعة وقسوة هجمية ، وتحسست سلاحي ، ولكنني رأيت الظروف أقوى مني ، فآثرت الخطة السلبية .

والخمود العصبي الذي يصيبنا في المواقف الخطرة من نعمة الله علينا ، وإلا فقدنا عقولنا في مواطن الخوف . كنت كأني راقد في فراشي أعاني ثقل كابوس عارض ، وأشعلت النور الداخلي للسيارة — كما أمرت — وتركتهم يفعلون ما يشاءون ، ولزمت الصمت في انتظار الأوامر الجديدة . وأخذ ثلاثة رجال يدورون حولي كأنهم شياطين ، ولكن رثاثة هيأتهم لفتت نظري ، وأطل وجه

جرىء قوى على حتى كاد يلمس وجهى . وأحسست حين رأيته أننى أعرفه ، كأننى كنت ــ مثلا ــ أقتنى صورته وهو بعيد عنى لم أره طول عمرى ، أو كأن ملامحه من الشيوع والانتشار بحيث توهمك حين تراها أنها غير جديدة عليك .

كان رجلا قصيرا بادى عظام الترقوتين ، فى نحو الأربعين . لكنه قاسى القسمات لا تنساه أبدا ، وجهه عريض ، عرضه أكثر من طوله ، كأنه كرة من الكاوتش ضغطت بين كفين ، له شارب « صينى » وبشرة مثل بشرة « الأجرود » .

ووقفت عنده عيناى وأنا فى مكانى من المقعد ، وكأنهما أوحى إلى أن هذا الرجل هو « مركز القوة » بين هذه الجماعة ، ولم أتكلم لا بما يضحك ولا بما يبكى . وبعد برهة رأيت ما أذهلنى ؛ رأيت ابتسامة أنيسة تنبثق من بين الملامح العكرة كما يظهر قوس الهلال من تلافيف سحابة غبراء . عندئذ رجحت أننى فى حلم تحت وطأة كابوس عاقل سيجلو من صدرى بسرعة وأستيقظ من النوم . وصدرت الأوامر منه برفق إلى الباقين الذين أخذوا يحلون السلسلة وهم مذهولون ، ويفتحون الطريق وينزلون المنحدر إلى الحقول بفوضى وسرعة . فى الوقت الذى انبعث فيه صوت عميق يقول لى :

ــ مع السلامة ! توكل على الله . أصلك ابن حلال .

وكابدت بعد هذه الحادثة انحطاطا عصبيا وأرقا وحمى دامت ثلاثة أسابيع ، وحرصت على ألا يعلم الغرباء بتفصيل ما وقع . والتمست لذلك تعليلا لم أوافق عليه .

كانت وجوه كريهة تصاحبنى طيلة أيام المرض . ففى ساعات

اليقظة كنت أرى وجه زوجة أبى ؛ فهى التى تسهر على وتقدم لى الغذاء والدواء وفى ساعات النوم كانت تعاودنى تفاصيل الحادثة على أنها أحلام ، فأرى الوجه العريض والشارب الصينى ، والوجوه المنكرة الأخرى ، ما جعلنى أزداد معرفة بوجه هذا الرجل كأننى أسكن معه .

وفى صبيحة يوم من الأيام الفاترة المرتاحة التى تعقب الأمراض ، دخلت علىَّ زوجة أبى وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة كانت مشحونة بالاعتزاز ، إن لم تكن ملأى بالمن والتذكير بالخدمة . فهممت أن أوبخها على ما بدر منها لكننى عدلت فاستنكرت أن يكون الطرفان لئيمين . فليكن أحدنا كريما .

وجلست على كرسى قريب ، وأخذت تتلكأ شأن من يخلق المناسبات ليفتح الحديث فى أمر يهمه . وكانت بين يديها صحيفة يومية مضى عليها وقت ، فجعلت تقلب فيها وان كانت لاتعرف القراءة . وثار عنادى على الرغم من موقفها منى أثناء مرضى ؛ فصممت على ألا أريح بالها . فتجاهلتها وأغمضت عينى ، وعلى حين غرة جاء صوتها القروى الممطوط يقول :

ــ ألا تريد أن تتنازل عما فى رأسك لنتفاهم معا ياأستاذ ؟

وفتحت فيها عينى ، فإذا بها تحملق فى الجريدة المفتوحة ، وكأنها تحول بين التقاء أنظارنا ، فتنهدت ؛ وتركتها تخرخش ، وعدت بخواطرى أتذكر موضوعها وموضوعى :

« لم أعرف أمى إلا معرفة غامضة ... كأنها رؤية فى ضباب ، فقد ماتت وتركتنى ابن خمس سنوات بعد أن ظللت

عشرين عاما تبتهل إلى الله أن يمن عليها بغلام يكون أخا للبنتين . وكان دعاؤها نديا دائما مبللا بالدموع . وحدث وولدتنى أمى ، وبعد خمس سنوات تركتنى ورحلت إلى حيث لا يرجع الناس ، وتخطف الأزواج أختى « فهيمة » و « سكينة » فأصبح زواج والدى ضرورة اجتماعية .

وكأنما أراد الله أن يخلق لنا إشكالات أكثر من النهاية الصغرى فأعطانا زوجة أب لا تلد . ولعل هذا من سوء حظى أول الأمر ، فإنها كانت تنظر إلىَّ بحنق وكأننى أنا الذى جعلتها عقيما ، ثم انقلب هذا — من حسن حظى — فلانت معاملتها لى ، ووجدت أنه من الخير أن تعاملنى كابن . فالزمان ليس فيه ضمان ، وربما احتاج المرء إلى امرىء لم يخطر له على بال .

ثم رأيت حب أبى لها ، ثم رأيتها تلبس بعض حلى أمى ، وتملك قلب أبى كله ، والدار خالية لها والخيرات ملك يمينها .. أخواتى عند أزواجهن يدخلن عليها غريبات ، وأنا أتعلم فى القاهرة ، ولا أقضى معها إلا الإجازات .

واخيرا مات أبى منذ تسعة شهور بعد أن وافق على خطبتى للفتاة التى كنت فى زيارة أهلها ليلة قطع الطريق علىَّ . وقالت أختاى إن زوجة أبى استولت على كل النقود التى كانت فى البيت وخبأتها، فضلا على أنها استولت على حنانه طيلة حياته . فلم تدعهما تتمتعان حتى بالفضلات . واجتمعنا واتخذنا قرارا وصل إلىَّ : هو وجوب إعطائها إرثها وإخراجها من الدار ، العدل هو الحكم الأول والأخير ، ولا داعى للشفقة على إنسان لم يشفق عليك .

وكانت كل منهما تكاد تتميز من الغيظ وتقطع شعرها ، وهى تتكلم بهذا الكلام ، واقتنعت بهذا كله مع رقة قلبى ، وأعلنت لهما موافقتى .

كانت الصحيفة لا تزال تخرخش بين كفيها ، وحين نظرت إليها من جديد خيل إلى أن خطوط الشيخوخة فى وجهها بدت أكثر وضوحا ، وأنها فى مذلة أبناء السبيل ، فقلت لها :

ـــ كنت أود أن أساعدك يا سيدتى . ولكن ماضيك مع أخواتى لا يشجع على المفاوضة .

فقالت وهى تبكى :

ـــ نحن ناقصات عقل ودين .. هكذا خلقنا الله . إن حكمنا .. ظلمنا . وإن هزمنا .. بكينا . أنا .. كنت أمك .. هل نسيت ؟

وانخرطت فى بكاء شديد . سالت به عيناها وأنفها وفمها .. وخنقتها الشهقات . فتركت المكان وخرجت .

وانقلبت من على ظهرى إلى جنبى . وأرسلت نظرى إلى الحقول الخضراء ، وتصورت أن هذه المرأة إن طردت من الدار فإنها ستشعر بالترمل والوحدة ، بل وبما يشبه اليتم . إنها ليست من قريتنا ، وقد أصبحت غريبة على قريتها بمرور المدة . لكننى بشر ؛ فلم أجد فى قلبى مكانا للعفو .

واستغرقت فى النوم فعاودنى الكابوس . ورأيت الوجوه الشريرة تصعد المرتفع من انخفاض المزارع فى طريقها إلى ، ثم الوجه المضغوط والترقوتين الظاهرتين والبشرة « الأجرود » والشارب الصينى

والبسمة المتألقة فى الليلة الحالكة وسلسلة من الحديد تسد الطريق ثم تفتحه ، ومرضى ، وسهرها ، وشفائى ، ودموعها .

واستيقظت ، فإذا بى وحدى .

وحين صفقت أستدعيها لتحضر ، دخلت على تحمل جريدة اليوم وكأنها كانت على باب الحجرة . وقالت بصوت كسير وفى عينيها التهاب خفيف لعله من طول البكاء :

ــ اسمع يا أستاذ . أنا عندى فكرة .. هل توافقون على أن أتنازل عن نصيبى من الميراث فى سبيل أن أبقى بينكم . فلا أطرد من هذه الدار ؟

وتشنج وجهها استعدادا للبكاء ، وأحسست أن قلبى الضيق قد أخذ يتسع شيئا فشيئا ، وأن العفو سينبثق منه كما ينبثق الماء من الصخر ، لكننى لم أتكلم .

وأخذت منها الصحيفة فى الوقت الذى ترامت فيه على الكرسى بعجيزة ثقيلة ، وجسم مريض ، ووجه أصفر ، وجعلت أتصفح الجريدة ، فرأيت وكأننى أحلم ، نفس الوجه ... الوجه العريض المضغوط والقسمات الصارمة والشارب الصينى ، وفوقه كلام وتحته كلام . لكننى عميت فلم أستطع القراءة ، فأغمضت عينى كأننى أسترد قواى .

وهدلت يمامة فى الخارج بصوت رخيم ، فيه كثير من الطيبة . فترجمت هديلها إلى كلمات كما كنت أفعل وأنا طفل : « وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم » .. ثم فتحت عينى .

عدت أقرأ تفاصيل الحادث . لقد قبض عليه هو وأعوانه بعد

حادثة سلبوا فيها مالا وأزهقوا فيها روحا . لقد عفا عنى هذا المجرم ذات ليلة ، وهبنى الحياة ولو أنه ليس صاحب حق فيها .

وقرأت اسمه ، وتذكرت أين رأيته ، كان فى قفص الاتهام فى محكمة المديرية منذ سنة ، وانتدبتنى الحكومة لأدافع عنه فى إحدى الجنايات ودافعت بحرارة ، وحكم ببراءته .

ولما وقفت أنا أستمع الحكم على من أعوانه ، حكم ببراءتى . وانبثق الماء من الصخر .

وتنهدت ثم سكتت ، ثم سمعت صوتها ينادينى :

ــ أستاذ مجدى .. مجدى ياابنى .. هل .. وافقت ؟ تذكر أننى فى إحدى ليالى الشتاء ــ وأنت صغير ــ ألقيت عليك الغطاء مرة ، فدفئت .

ووضعت كفها على عينيها وشرعت تنتحب ، فقمت من فراشى وشددت يديها برفق لتكشف وجهها ، وأنا أقول لها :

ــ عمتى . عمتى .. لا تخافى . قد كنت يوما من الأيام عزيزة عند أبى العزيز .

ثم دخل صوت اليمامة من النافذة مرة أخرى يقول :

« وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ».

الماضي لا يعود

هبط المساء وأنا وحيد فى الشقة .. تركونى وسافروا ليحضروا زفاف أحد الأقارب .. وكانت المهمة الحقيقية لبقائى هى حراسة البيت لأن موجة السرقات اكتسحت حينا فى هذه الأيام .

وشعرت بالملل سريعا ، لأننى لم أتعود الوحدة ، فخرجت إلى إحدى الشرفات ، وجلست بليدا خائرا مفككا فى كل شىء .. وكان معظم النوافذ فى البيوت القريبة مغلقا ، ومعظم المفتوح منها غير مضىء ، ومعظم المضىء لا يظهر فيه شبح لإنسان ، ولو أن الربيع فى هذه الليلة كان يتنفس أنفاسه الأولى ..

وكان الشارع قريبا منى ؛ لأننى فى الطبقة الأولى من البناء ، فأكاد أستبين الوجوه كلما مرت تحت المصباح الكبير . وهناك لوحة الإعلانات التى تحيط بالأرض الفضاء المتصلة بالميدان ينصب فوقها النور ويجلس تحتها شحاذ ..

وامرأة متشحة بالسواد يبدو لى أنها ثكلى ، انحنت على الفقير الجالس تحت اللوحة ، فوضعت فى كفه شيئا ، ثم مضت فى طريقها مستمعة إلى دعائه .. حتى إذا ما أيقن أنها لم تعد تسمع ، بدأ يدعو للإنسان المجهول ؛ لذلك الذى يملأ بطن طفلين ينتظران العشاء .

لكن بصرى ارتفع عن الشحاذ وأسماله ، حتى وقع على اللوحة ، فرأيت عليها صورة ضخمة لرجل وامرأة ؛ هما بطلا فيلم من الأفلام .

وكنت رأيت هذه الصورة فى الصباح — وأنا فى طريقى إلى المدرسة — لكنها لم تكن كما رأيتها الآن ... كان الفرق بينها وبين نفسها واضحا عظيما ؛ كأن التى رأيتها تحت ضوء الشمس غير التى رأيتها تحت ضوء المصباح ، فبدأت الأفكار المشتتة تتجمع حول شيء معين .

* * *

كان المنظر على اللوحة يمثل نشاط مدير الدعاية للفيلم ، فقد اختار للبطلين وضعا مثيرا ، نطقت فيه تقاسيم المرأة بقرار التسليم بعد الجهاد الطويل ؛ فبدت الهزيمة فى عينيها ضوءا وسحرا ، وفى أجفانها تكسرا وفتورا ، وعلى جبينها تجعدات تمثل آخر جيوب المقاومة ... أما البطل فقد كان فى طريقه ليجنى الثمرة .

وبالاختصار كان الإعلان يمثل « القبلة » . أما المصباح فقد كان فى تجاه الصورة يلقى عليها نوره ، وكأنه مخدع ... والشحاذ يهتف بين لحظة ولحظة : « لله يا أسيادى » ، ثم يدعو للمجهول ... فكأن الحرمان واللذة أطلا على المكان من نافذة واحدة .

وقررت فى جلستى أن أذهب غدا لأرى الفيلم ، وخمنت أن الظروف التى قررت بطلته الإستسلام فيها مشابهة للظروف التى مرت بنا ، والتى قررت « كريمة » أن تستسلم فيها .

وتذكرت قصة كريمة بحذافيرها ، وكانت بدايتها مدخلا لا يدل على النهاية بحال من الأحوال .

البداية حارة بسيطة غير معقدة ؛ كأنها كلمة الحب فى فم الطفلة ، أما النهاية ؛ فقد كانت مبهمة غامضة .

غامضة فى نظرى على الأقل ... فإن رأيت فيها شيئا من الوضوح فاقبل عذرى ، فنحن لا نستطيع أن نرى تفاصيل مشكلتنا الشخصية بالدقة التى يراها بها الناس ... كنفس موقفنا من وجوهنا التى نراها فى المرآة ولا نرى بالضبط ما تصنعه فيها أنامل الأيام .

جمعتنا معا مهنة التدريس في إحدى مدارس البنات .. الأهلية .

وكان كلانا فى مقتبل عمره وسنوات أحلامه . وكان حلمى أن أصبح مدر سا فى الحكومة حتى أطمئن إلى مستقبلي . وحلمها أن تصبح زوجة حتى تطمئن إلى مستقبلها .. وكان مرحها موضع حديث زملائها ، وحبها موضع حسد زميلاتها .. أما قلبها فقد كان فى الظاهر قريبا من صاحب المدرسة ..

وكانت من القادرات على أن تغير أفكار الناس عنها بسرعة ومهارة : فمرحها ينسيك طيشها ... وتوددها ينسيك أنها تعرف غيرك .. قادرة جدا على أن تلغى الزمن ، ما فات وما هو آت .. فتصرفك وتلهيك عن مستقبلك .. ومعنى ذلك أنك تفعل كل شيء تريده منك .

ونقطة البدء فى علاقتنا معا ، كانت عصر يوم من الأيام .. حين انصرف التلاميذ ، فخيم على البناء وحشة وسكون يشبهان

ما يكون من انفضاض السامر .

وجلست أصحح الكراسات فتأخرت نوعا ، وكانت الفراشة فى الجناح الثالث من المدرسة تمسح وتكنس .. عجوزا ترى كل شىء بكفيها وتجاهد لتربية الأيتام ..

وهبطت السلم فى طريقى إلى الخارج وأنا أتأمل فعل الرطوبة فى البياض والأحجار الجيرية التى بدأت تتآكل

وسمعت وقع حذاء امرأة فى الدور الأرضى فى الطريق إلى الخارج ، تسلك صاحبته ممرا ينتهى عند أول السلم .. والتقينا هناك ..

كانت تحمل حقيبتين ؛ فى إحداهما أدوات المرأة وفى الأخرى أدوات الموظفة .. كتب وكراريس وأقلام وأشياء كثيرة .. ولم يكن على وجهها مرحها المألوف ، بل كانت كأنها خائفة أو مهمومة .. وكان أول ما بادهتها به أن قلت لها وأنا واقف على الدرجة التالية للأرض ، وابهامى فى حزام البنطلون وسترتى مفتوحة :

ــ الله . أنت هنا ؟!

ولكنها لم ترد واتجهت نحوى كأنها تريد أن تصعد السلم ، ففسحت لها الطريق . ولكنها لبثت حيث كانت ، وظللتنا فترة من الصمت سمعت خلالها دقات قلبى ، وجاءنى فيها كذلك صوت الجردل على البلاط فى يد الفراشة على بعد .. وهممت أن أقول شيئا جديدا ــ ونحن فى موقفنا فى قبو السلم الخافت الضوء ــ لكنها فاجأتنى كمن يلقى قراره الأخير :

ــ اسمع يا عدلى افندى .

فقلت بهزة من رأسى :

ـــ نعم .. أنا سامع ..

فاستطردت بإيجاز واقتناع :

ـــ خلاص .. خلاص .. أنا غلبت .

وكان القرار فى عينيها . وجوارحها جميعا .. كان اعترافا وتسليما وبداية لعلاقة لسنا ندرى ما مداها .. وكان على جبينها تجعدات آخر جيوب المقاومة ؛ كنفس هذه التجعدات البادية على وجه بطلة الفيلم .. أمامى .. الآن .. تحت المصباح .

قلت لها وأنا أتكلم كالمأخوذ :

ـــ كده .. حملك ثقيل . فلأعاونك على حمل شىء ..

ومددت يدى لآخذ منها حقيبة الكراسات ، لكنها لم تدع الحقيبة ولم تدع يدى ، وبعد برهة فيها غموض ولذة ، تركت الحقيبة تذهب حيث تشاء ، فذهبت إلى الأرض طبعا . وبقيت كفى فى كفها .. ثم نفذ القرار والتقت شفتانا .

وكان صوت الفرشاة على البلاط أشبه بصوت المنشار فى الخشب ، يأتى إلى أسماعنا وكأننا فى حلم . وكان صوتا رائعا ، لأنه عين مكان الفراشة ، ومقدار بعدها عنا .

وأخذنا بعد الشراب نفسا طويلا كما يفعل كل ظمآن .. ثم نظر كل إلى صاحبه . ثم انحنيت على الحقيبة فحملتها ، وسرت ، وسارت ورائى ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت سائرة ورائى عدة أشهر ..

وهكذا بدأت القصة ..

وهى بداية عادية تحدث لملايين القلوب.. لكننا حين اختلينا

للمرة الأولى سألتها عن المعارك التى سبقت قرار التسليم فأخذت تتكلم وحدها :

ــ الحرب فى عالم القلوب حرب غريبة .. فبعض القلوب يهجم على البعض وهو لا يحس أنه يقاتل .. وهذا هو الذى حدث فى قصتنا معا ، أم يا ترى قد أحسست أنك تفعل شيئا حيالى ؟

وهممت أن أجيب ، لكنها رفضت ، ورفعت كفها نحو فمى كأنما تريد أن تسده ، ثم استطردت فى شجاعة ومرح :

ــ أعرف ما تريد أن تقول !! إن كنت أحسست بوجودى فقد جاء تسليمى بعد مقاومة عنيفة ؛ لأنك دخلت الحرب . وإن كان العكس ، فقد رجعنا للقاعدة الأولى ؛ وهى أن بعض القلوب يهجم على الآخر وهو لا يحس أنه يقاتل .

فابتسمت وأنا أنظر إلى حجرها ، وحولت الكلام إلى اتجاه آخر .

حاولت أن أتكلم عن الماضى ، فألهتنى عنه ، ولم تشأ أن تتكلم عن المستقبل حتى لا تلزمنى بشىء ، فألغت الزمن ما فات منه وما هو آت . وكأننا اتفقنا على « المقاصة» فسكت عن ماضيها مع غيرى وسكتت هى عن مستقبلها معى ، وتركزت أفكارنا وأعمالنا فى الحاضر وحده . حتى صرنا كأننا مجندان فى جيوش الحلفاء أيام الحرب ، هبطا القاهرة ليقضيا فيها ليلة واحدة لاغير .

ولكننا لا نرضى .

نحن الرجال ليس يرضينا منهن شىء . إن بذلن الحب على طريقة حوريات الجنة : فلا ماض ولا مستقبل ولا مسئولية ، وانما

هو حاضر صرف خالص ، تملؤه ملذة لا تنغصها طرقة . إن فعلن هذا ، وصفنا البضاعة بأنها رخيصة !!

وإن رسمنا الحدودووضعن القيود ، قلنا : انهن يبغين صيدا ...

ومن أجل ذلك ينبغى أن يكون « الحب » مثل « الحياة » . نتمتع به ولا نتأمل فيه ، ونقول « الله » بعد كل « رشفة » منه ، دون أن ننظر إلى بقية « الكأس » .

وهكذا فعلت« كريمة » ، أو هكذا كانت طريقتها ؛ كانت تشرب ظامئة متلذذة، وعيناها حائدتان عن قاع الكأس . ولم يسعنى إلا أن أفعل نفس الذى فعلته .

حتى دهمنا الصيف ..

وسافرت إلى المنصورة مسقط رأسها .. وجاءتنى منها رسائل كثيرة فى أول الأمر ، تحوى تفاصيل دقيقة لحياتها اليومية ، حتى كأننا نحيا معا ..

واختصرت مدى البعد بيننا فحضرت مرة إلى العاصمة فى أجازة الصيف ، وقد جعلت لنا هذه الزورة بمثابة الاستراحة على الطريق الصحراوى .. لكننى لحظت شيئا غريبا فى معاملتها لى ، على الرغم من أنها كانت تمنح أكثر من ذاتها لو أن هذا يستطاع .. لحظت كأن لقاءنا وداع . وكأن شخصا يزاحمنى فيها ويشدها إليه ، وكأنها تقاوم ولكن إلى أمد .. وكأن بوادر التسليم أيضا تداعب عزمها .

بيد أننى عدت ففسرت شكوكى تفسيرا لذيذا ، حتى لا أفسد نعيمى إلى أن انتهى اليومان ، وودعتها إلى القطار .. ووصلت إلى

المنصورة طبعا بالسلامة ، ولكن رسائلها لم تصل إلىَّ ..

وقبل بدء العام الدراسى علمت — عن طريق المدرسة — أنها ألغت عقدها ، لتتعاقد مع إحدى المدارس الأهلية فى المنصورة .

* * *

كنت لا أزال فى مكانى من الشرفة حين تواردت على هذه الأفكار ..

وتقدمت خطى الليل ، وكان أهم مظهر لتقدمها تناقص عدد المارة ..

وبدأ عدد دعوات الشحاذ فى التناقص أيضا ، ثم شرع بعد قليل يعد ايراده اليومى ، ويكف عن العد ويستأنف الدعاء ، كلما ظهر شبح على الطريق ..

ومصباح الشارع يلقى النور فى سخاء على الصورة الكبيرة . وخيل إلىَّ أن تهالك المرأة قد زاد عن ذى قبل ، وأنها حية ينبض صدرها بالأنفاس .

كف الشحاذ عن الدعاء نهائيا ، وغاب عن الوجود قوله : « لله يا أسيادى » .

ومر عابر أو إثنان ، فلم يوجه اليهما قولا .. ثم لم أسماله وأخذ عصاه ، وقام من مكانه وخطا عدة خطوات .. ثم توقف واستدار نحو الصورة على اللوحة ، ووقف وكفه متعامدة مع جبينه كأنه يتقي الشمس . ثم أنزل يده واستدار متجها إلى البيت . وكأنما أعجبه الحال .. فابتسمت ..

ووقفت أفكارى وعاد إليها ركودها الأول ، وأحسست رغبة فى الدخول إلى مخدعى . لكن السكون المطلق الذى ران على الشقة لم يشجعنى على سرعة الدخول .. فأخذت أنظر إلى غير هدف .. أنظر إلى أى شيء .. وأنظر إلى كل شيء .

وأخيرا انقطع النور فى الحى كله ، وانطفأ المصباح الذى سهر ليالى عدة على صورة الحبيبين والقبلة .. وغرق كل شيء فى الظلام .

وكأنه لم يهن عليّ أن أدخل دون أن أتخيل شيئا أخيرا . فتخيلت أن هذين الحبيبين هما اللذان أطفآ المصباح ، وقبل أن يستسلما . للنوم ، فابتسمت وأنا أغلق أبواب الشرفة ..

وتحسست طريقى حتى وصلت إلى فراشى ، واندسست تحت اللحاف الخفيف ، وأخذت نفسا عميقا ، وأنا أحس بالوحدة . وكان آخر ما تذكرته فى هذه الليلة اليوم الكئيب الذى تسلمت فيه رسالة ثقيلة بما فيها وعليها خاتم المنصورة .. ولما فضتتها وجدت فيها مجموعة رسائلى إليها ، ولم يكن معها من شيء إلا رجاء الواثقين من أن رسائلها ستصل إليها بنفس الطريقة ، لأنها تعرفنى جيدا ... وأيضا .. من أجل المستقبل . أما الماضى فإنه . لا يعود !!

وهتفت يومئذ متعجبا : المستقبل ؟ وهل بدأت تفكر فيه ؟

ورددت إليها الرسائل دون كلمة .. لا عتاب ، ولا شوق ، ولا رجاء ، ولا دعاء .. وتركت الموضوع على غموضه فترة من الوقت .

ثم دفعنى حب الاستطلاع إلى التطلع ، فكتبت لأحد زملائى في المنصورة ليتحرى عن اسم هذه المدرسة فى تلكم المدرسة ، ولكنه أخبرنى أنه ليس هناك امرأة تحمل هذا الاسم .

وأسدلت الستار على النهاية الغامضة ثم نسيتهانوعا ما . لكن المصباح والصورة الكبيرة كانا يذكرانى بها كل مساءويحملانى على أن أستعيد القصة التى بدأت من قبو السلم وانتهت بزيارة الصيف .

وبقيت كذلك حتى رأيت ذات صباح ، وأنا فى طريقى إلى المدرسة لاصق الإعلانات يغطى صورة « القبلة » بصورة لرجل شريد .. عملاق ضخم يحمل عصا وحقيبة ويضرب سائرا فى الأرض جائعا نصف عريان .

فهمست وأنا أنقل حقيبة الكتب الثقيلة من يد إلى يد :

ــ آه .. كل يوم يمر يخرج من حسابنا إلى الأبد والماضى لا يعود !

نهاية معركة

كان خوفى أكثر من عجبى حين علمت وأنا غلرق بين الدوسيهات على مكتبى ـــ ذات يوم ـــ أن مدير إدارة الحسابات الجديد يدعى الأستاذ النجار .

وسألت زميلى الذى كان إنهاك العمل والسهر والعسر وعدم التغذية باديا عليه :

ـــ هل رأيته ، أهو ذلك الشاب الأبيض ذو الوجه الطويل والنونة العميقة فى أسفل الذقن ؟ أهو نفسه يا صديقى ، أم أن الاسم مشابه ؟ . إن عدد النجارين فى الدنيا أكثر من عدد الأبواب والشبابيك .

فلم يجب صديقى إلا بأن وضع طرف سبابته على أسفل ذقنه ، وأخذ يضغط وهو يقول :

ـــ ذو النونة .. هو بعينه .

* * *

ودفعتنى هذه الكلمة إلى الوراء عشر سنوات انسربت من العمر لحظة أثر لحظة ، فلم أشعر بها إلا اليوم ، فعجبت كما نعجب فى الصباح حين ينزف الرشح ماء القلة التى ملأناها أول الليل . وجعلت أتصور ـــ وصفوف الأرقام تنبسط تحت ناظرى ـــ ماذا عسى أن يجرى بينى وبين الأستاذ النجار ، بعد أن وكلته بى الأقدار وأتت به

رئيسا عليّ ؟

لكننى ما لبثت أن رجعت فى طريق عمرى مرة أخرى ، وعاد الأستاذ النجار فجذبنى نحو الحاضر ، ثم تغلب الماضى فسحبنى إلى الخلف ، ثم قهره الحاضر بعد برهة من الزمن .. حتى شعرت كأننى ممطوط دقيق ؛ كالحبل بين يدى طفلين ، وأننى أكاد أتمزق . فنحيت الأوراق من أمامى وطلبت فنجانا من القهوة ، وسرحت أذكر ما فات .

كان الأستاذ النجار فى ذلك الحين طالبا ضعيفا نحيفا منطويا ، فى السنة النهائية بكلية التجارة ، يسكن مع أبويه فى الدور الثانى من المنزل الذى أسكن — أنا — إحدى حجراته فى الحوش ، وكان يعانى أزمة نفسية حادة مستديمة ، فهو يحاول أن يفرض احترام نفسه على الناس باعراضه عنهم واحتقاره لهم ، وكان أنجح الطلبة فى الحى كله ، وقد خلق هذا حوله جوا من كبريائه الزائفة ، وكان أهم ما نسجوه حوله أنه أنجح التلاميذ فى الحفظ ، ومن أخيبهم فى خلق العلاقات الاجتماعية وبخاصة رابطة الحب ، إلى حد أنه طارد إحدى الفتيات فى الطريق — ذات مرة — فصفعته على خده ، فانزوى يبكى بجوار جذع شجرة . ومنذ ذلك التاريخ تعقد الأستاذ حيال المرأة .. فلم يحاول .

وتطوع ابن الحلال فأنهى إليه القصة . وفتت هذه القصة الصادقة أو الكاذبة فى عضد المسكين ، فتركته يتخبط فى طريق العلاقات .

لكن المعركة الحقيقية نشبت بينى وبينه من دون الناس جميعا .

وكانت هذه المعركة بسبب الآنسة وداد ، قعيدة بيت أبيها الآن بعد أن نالت قسطا من التعليم يجعلها صالحة لأن تساير العصر .

كانت تسكن مع ذويها فى الشقة التى فوقى ، وهى نفس الشقة تحت آل النجار ، أعنى أن الآنسة وداد — كما قلت لها يوما فضحكت — كانت أشبه بملعقة من المربى دست بين شفتى رغيف حامض .

وشبت بينى وبين وداد علاقة هوى جميلة ، كانت وحدتى تتيح لى أن ألقاها ؛ لأن « المندرة » التى كنت أسكنها كانت واقعة بالقرب من باب البيت ، وكانت وداد أكبر إخوتها وأخواتها على السواء ، وشريكة أمها فى تدبير المنزل .

رأيتها للمرة الأولى وهى واقفة خلف المصراع المقفل من الباب الرئيسى ، ووجهها المستدير — استدارة البدر — يطل نحو الحارة ، وفتحت ثوبها تكشف عن أسرار صدرها ؛ لأنها مائلة إلى الأمام ، ترقب بائع الطماطم وهو رافع ميزانه ذا السلاسل حتى لا يغشها فى الوزن . واحمر وجهها حين لمسته نظراتى ، وحملقت فيها بجوع ، تحركت شفتاى بكلمة إعجاب دون أن يصدر منى صوت ، ثم وقفت أدير المفتاح فى باب « المندرة » فى بطء وتلكؤ ، وأنا أرقب عودها الذى تتدفق الحياة فى أعضائه تدفقها فى نبات الربيع .

وجعل كل منا يتحين الفرصة للقاء صاحبه ، كان طبعها النارى لا يعرف الانتظار ، حتى سنحت لنا فرصة طويلة بيضاء — ذات مساء — أخليت فى صباحه الغرفة المجاورة لغرفتى فى الحوش .

فالتقيت أنا وهى فى غرفتى ، فى صمت ، ولما شيعتها حتى باب الحجرة ووقفت أقبلها لدى الباب ، فما راعنى إلا ونور مصباح كهربائى ــ من الذى يحمل فى الجيب ــ يقع على وجوهنا بغتة ، وكان ذلك بيد شبح يقف فى فتحة باب البيت ، وجرت وداد تستبق الطريق على درجات السلم ، وأقفلت بابى ، ودخلت . ولم يكن هذا الطارق سوى الأستاذ النجار .

وجعلت الإشاعات واللذة المكشوفة هذا الشاب المنطوى يقدم على العمل مرة أخرى ؛ فتعرض لوداد ذات مرة ، فلم تأبه له . ثم تعرض لها مرة أخرى ، فثار بينهما جدال أدى إلى نوع من الشجار وسوء التفاهم بين الجيران .

ولعل أم حبيبتى كانت تعلم دخيلة نفس بنتها ، ثم لعلها تصورتنى زوجا لها فرضيت عنى . أما غريمى فقد باء بالخسران ، ونسج حوله كارهوه من الطلبة قصصا غذت حقده علىَّ ، حتى صرت أجمع ــ كل أسبوع ــ عدة عرائض وخطابات مجهولة ، ورسوم كاريكاتيرية ذات مدلول مؤذ ، تدس تحت بابى أولا بأول .

ومن المحتمل أن هذه الأشياء كانت بيد الأستاذ النجار . ومن المحتمل كذلك أن بعض حاسديه كان يعملها ليوقع بينى وبينه ، ويوقظ نار غيظى منه . حتى فقدت السيطرة على زمام أعصابى ، فاشتبكت معه فى عراك ــ أصيل يوم من الأيام ــ حين التقيت به وجها لوجه فى إحدى الحدائق العامة . كنت قوى البنية ، وكان ضعيف الجسم . كان ذكيا محدود القوة . وكنت أنا عادى الذكاء ، ولكن « جتتى » تمكننى من أن أجر عربة نقل ، وكان

ميزان المعركة فى صفى طبعا ، فروح الأستاذ النجار بأسنان دامية وكدمة على خده الأبيض .

ثم تقلبت الأيام بسكان البيت ، فانتقل آل الأستاذ النجار إلى مسكن آخر ، وعقدت قرانى على وداد ؛ التى أصبحت ــ اليوم ــ أما لثلاث بنات ، ودخلت بها بعد أن نلت البكالوريا ووظفت كاتب حسابات ، وأنا اليوم ــ بعد عشر سنوات تماما ــ فى الدرجة السابعة .

وأفقت على قول زميلى :

ــ بنا .. هلم .. لنسلم على المدير الجديد .

ودخلت فى طابور الموظفين الذين زرروا ستراتهم ، وعدلوا طرابيشهم وقلبى يخفق ...

ولم يبد على وجه الأستاذ النجار أنه عرفنى ، أما هو فقد كان كما هو ، كأن الزمن لم يمسه بيد ، حتى خيل إلىَّ أننى سأرى الكدمة التى أحدثتها له وهى لا تزال زرقاء على خده ... وسلم بكبرياء ، وبدا كأنه ينظر إلى انحناء الناس بتشف وشماته ، ثم تركناه وانصرفنا .

وحكيت لوداد زوجتى فى مساء هذا اليوم ما وقع عندنا فى إدارة الحسابات ، فاستغرقت فى ضحك غير مبال ، لكن الخوف كان يصبغ حواشيه . ثم سهرنا نتكلم عن النسيان وعن كونه نعمة من نعم الله على الناس ، وعرجنا على الضمير وطريقة حكمه لأهوائنا ؛ لأن الذى حدث بينى وبين الأستاذ النجار ، لم يزد على كونه طيش شباب . وأحكامنا على أعمالنا تتغير بتغير أعمارنا كما تتغير أحكامنا على أعمال الناس .

وقالت زوجتى وهى تمضغ اللقمة .

ـــ والدليل على ذلك ، أنني رأيت مرة حذائي أيام كنت طفلة ، فاستغرقت في الضحك على صغر رجلي ، كأنني أجهل أن أرجل الأطفال يجب أن تكون صغيرة .

وبعد يوم من هذا الحديث استدعاني الأستاذ النجار ، فدخلت عليه ؛ جاف الحلق ، خافق القلب .

ولقيني بتودد متكبر ، ثم شفى غلة صدره بأن أذهب عني الخوف ببعض كلمات . أما دخيلة نفسي فكانت ثورة ، حتى خيل إليَّ أن أقوم فألكمه مرة ثانية . لكن حركات شاب في الثلاثين من عمره ، لابد أن تختلف عن حركات هذا الشاب نفسه أيام كان في سن العشرين .

وقص عليَّ الأستاذ النجار قصة الإسكندر الأكبر ، وهو ينفخ من فمه دخانا معطرا من سيجار ثمين ، وكرسيه الدوار راجع إلى الوراء . قال لي :

ـــ هل تعرف قصة الإسكندر الأكبر ؟

قلت :

ـــ لا .

فقال بتهكم خفيف :

ـــ إذا ماذا تعرف ؟ اسمع القصة :

« لما آل الملك إلى الإسكندر الأكبر ، ذكر معلمه ـــ أيام كان صغيرا ـــ فاستدعاه . فدخل المعلم جاف الحلق خافق القلب ... لأنه كان قاسيا على الإسكندر أيام تعليمه . لكن المعلم لقي من الإسكندر كل تقدير وإكرام » .

وضحك ثم قال :

ـــ هل فهمت ؟

فأومأت برأسى : فهمت .

وفى المساء حكيت لوداد ما جد من جديد . فغاب لونها . وقالت لى :

ـــ إنه لم ينس ، مصيبة .

ـــ هل كان يحبك كثيرا يا وداد ؟

ـــ هذا سؤال غير مهذب ، فات أوانه ، أى اجابة عليه لا تخلو من التأثير السيىء . المهم هو أن تكون حذرا .

ـــ هل ماتت ضمائر الناس ؟

ـــ هل تعتمد على « العفو » حتى لا ترتكب « الخطأ » . تذكر « المؤاخذة » تستغن عن « الاستغفار » .

وتنهدت .

فرأيته كلاما وجيها ، ثم قلت بينى وبين نفسى : « طيب ... وماذا أعمل فى ماضى الإدارة ... فربما كان هناك أخطاء يمكن تعقبها » .

وأخذت الأعمال تتكدس علىَّ بفضل رعاية الرئيس الجديد ، وحين شكوت إليه مما أعانى ، قال بلهجة متكبرة تذكر بشىء :

ـــ لا .. أنت رجل طول عمرك .. والرجال لا يشكون ، كلنا فى خدمة المصلحة العامة . تفضل .

فتفضلت بالانصراف ، وركبنى الوهم والشك ، فخيل إلىَّ أن الأستاذ النجار يضع خطة لهدف غامض ، قد يكون متعلقا

بشخصى أنا ، وقد يكون متعلقا بالفتاة التى أحبها وفزت بها دونه .. وهناك ألوان من الحب لا يبليها الزمان .

كان غـــير متزوج حتى هذا التاريخ . وأحب الدراسة أكثر من حبه أى شيء ، وهو يجهز نفسه ليحضر رسالة فى الاقتصاد ، وسمعنا أنه مرشح لمنصب جديد فى أحد المصارف .. لكنه على الرغم من كل شيء ، كان محروما من مرفق عادى طبيعى ، يرده الرجال من مختلف الأعمار والطبقات .

وإذا أصيب الجسم بخلل ، تحركت عليه علله القديمة .

وحين أحس بعض الزملاء بالخلل الذى أصاب مركـزى فى العمل ، تحركت فى نفوسهم أضغان وأحقاد . خصوصا مصطفى سكر ؛ منافسى فى الأقدمية ، الذى حفظ جميع منشورات المالية عن ظهر قلب واستعملها ليفوز بالدرجة السابعة من دونى ، ولما فزت عليه بها ظل يحفظ لى هذا الثأر ، لاينساه .

وأحسست الخطر من تقرب مصطفى للمدير وتقريب المدير له ، وجعلت أناقش كلمة الضمير ومدى وجودها فى باطن الناس وزادت كبريائى وعنادى حين أيقنت أن للعنصر النسوى دخلا فى المعركه الناشبة .

ولم أعد أشكو من الارهاق وإن كنت مرهقا ، وصرت أتحسس طريقى كلما خطوت خطوة فيما تخاف المسئولية فيه ، لكن أوراقا فقدت ، وأخطاء وقعت ، ونبش الماضى بكل ما قد يكون فيه من غلطات ، ووقع عقاب مادى بالخصم ، وأدبى بالنقل إلى إحدى مديريات الوجه القبلى .

وكان هذا بداية للمتاعب .

فقدنا فى الأسبوع الأول من إقامتنا فى الصعيد ، فى الصيف الشديد الحرارة كبرى بناتنا . أصابتها ضربة شمس فماتت على أثرها ، وكانت بنت ثمانى سنوات قاهرية لينة ، طرية ، غضة مثل زهرة البانسيه ، فدفناها هناك .

وبعد مدة غير طويلة ، اعترفت زوجتى فى حماقة أنها كتبت خطابا طويلا للأستاذ النجار ، فكدت أخر مغشيا على حين فاهت بهذه الكلمة .

وأسرعت وداد فوضحت الموقف ، ودمعة كبيرة كأنها ندى تجرى على خدها الشاحب :

« تحت وطأة الحزن الشديد وضغط ما أصابنا ، كتبت أذكره بالضمير وبأن المسائل الشخصية البحتة يجب ألا تدخل فى أعمالنا العامة ، و ... » .

لكن ذلك لم يعفها من اللوم ، ولم يعف منزلنا من الخصام القائم الذى ظلل على أرجائه فترة طويلة .

لكن الطباع الأصيلة والمزايا الحقيقية لا تلبث أن تغيث أصحابها وأن تدعم حياتهم مهما أحاطت بها البلايا .

وقد كنا زوجين متحابين ، وكان فى وداد ما فى نبات الصبار من مزية ... تزرعها فى الصحراء فتخضر ، وفى الحقل الراوى فتنضر .

فأخذت هذه المرأة تزيح الوحشة عن حياتنا شيئا فشيئا ، حتى غدت مريحة ، ثم أصبحت بهيجة .

وقرأنا فى الصحف بعد عامين خبر نقل الأستاذ النجار إلى منصب كبير فى أحد المصارف ، ثم انقطعت أخباره بعد ذلك . . .

وأنجبنا غلاما آخى البنتين ، فنظرنا إلى الحياة نظرة عبقرية ، حتى لكأن صحراء الصعيد أصبحت أمام أعيننا جنات ذات أنهار ، واندمجنا فى الوجود اندماجا لذيذا طاب فيه طعم الكفاح .

* * *

وعند انتقالى إلى القاهرة مرة أخرى ـــ بعد خمسة أعوام ـــ ذكرت وأنا فى ميدان المحطة ، شخصية الرجل الذى نفانى عنها .

وسألت أول كاتب حسابات فى مقر عملى الجديد ـــ بطبيعة الحال ـــ عن حال الأستاذ النجار فى هذه الأيام ؟

ففتح فى عينين مدهوشتين ، وسألنى وهو يجيب :

ـــ الأستاذ النجار ؟ ألم تعلم خبره حتى اليوم ؟

فقلت :

ـــ لا . . .

فألقى إلىَّ بالخبر بوجه عام ، وهززت رأسى واستغفرت الله ، لى وله .

ويوم انتقل عمى إلى رحمة الله ، ذهبنا جميعا نشيع جثمانه إلى مدفن الأسرة ، ودققت النظر من خلال الدموع إلى الدرجات المعدودة التى يتحتم على كل فرد منا أن يهبطها ثم لا يصعد ، وتصورت نفسى وأنا أنزلها ثم تصورتهم ينصرفون .

واستدرت راجعا إلى المدينة وخيل إلىَّ أننى متعطش إلى الحياة ، وكأن المدافن التى قامت حديثا بالقرب من أحضان التلال ، كانت شديدة الوحشة تذكر بالحركة .

ووقفت فجأة لأقرأ عبارة منقوشة بعناية على قبر مجاور ملاصق لمقبرة أسرتنا ، فطفرت الدموع من عينى مرة أخرى ، فقد كان كاتب الأسطر يطلب الرحمة لنزيل هذا المكان : الأستاذ النجار الذى مات منتحرا فى يوم عيد .

همست وبصرى عالق بمثواه ، وأنا أصعد إلى إحدى السيارات التى ستنقلنا إلى المدينة قائلا :

« سنتجاور مرة أخرى يا سيدى ، لكن .. الأحكام التى ستظللنا فى جيرتنا الجديدة ، عدلها مطلق » .

الآنسة الصغيرة

بدا من خلال الباب المفتوح أمام عينى موظف المكتب الوحيد للبريد فى هذه المدينة الصغيرة ، شبح فتاة وقفت قليلا لدى الباب ، ثم تلفتت ، ثم انصرفت .

وكان هذا المكتب الصغير هادىء العمل فى ذلك اليوم ، مما حدا بالموظف أن يترك أفكاره إلى حيث تشاء ، وأشعة بصره تتلقف المارة أمام الباب شبحا اثر شبح . وحين بدأ الملل يتسرب إلى نفس الموظف ، ألقى نظرة من على كتفه إلى الساعة المعلقة خلفه على الحائط . وهو ينقر بقلم الكوبيا على النضد الخشبى الممتد خلف الحاجز ، ليزاول موظفو المكتب أعمالهم عليه . وأدرك أن الوقت لا يزال وفيرا ... خمس وثلاثون دقيقة بقيت على موعد الانصراف ، ولم يكن يصل إلى أذنه صوت إلا دقات الخاتم الرتيبة ، كأن وكيل المكتب يضع على الأوراق خاتم البريد فى حركة غير واعية ووجه فارغ لا يعبر عن شيء . مجرد حركة .

وفى اللحظة نفسها، عاد شبح الفتاة ، فدخل فى نطاق نظرة الموظف . كان نصفها بالطول ظاهرا ونصفها الآخر لا يزال مستورا ، ورآها تنظر فى الساعة المعلقة فى صدر المكان ، كأنها غير قادرة حتى الآن على أن يلتقى نظرها بنظر من فى

الداخل .ولكى يتبين ملامحها تماما ، أطرق نحو النضد الخشبى الممتد أمامه ، وألقى عليها نظرة غير مكشوفة .

فرآها دقيقة رقيقة شقراء نحيفة ، يبدو التردد على خطاها القصيرة كأنها ستصرف شيكا مزورا . وخفق قلبه لمجرد تصور هذا ، إنها زهرة فى الخامسة عشرة ، فى سن ابنته تماما ، فما أقسى أن تدفع الأقدار ببعض الأزهار إلى الكانون حيث تأكلها النار !! ما أفظع أن يحجزها وكيل المكتب ليسلمها إلى البوليس !! وتصور أن ابنته وقعت فى هذا الخطأ ، فاسترسل قلبه فى الخفقان .

ثم قال : « وعليكم السلام ورحمة الله يا ابنتى .. » .

وانتظر صامتا ، وهو ينظر . كانت قد وصلت إلى حيث يقف الجمهور عادة ؛ أمام الحاجز الخشبى الطويل ذى الدهان البنى القديم ، ولم يكن هناك سواها ، وكانت تفتح كيسا صغيرا من المشمع الأحمر بأنامل لطيفة بيضاء خائفة ، وعيناها لا تنظران إلى شىء ، لكن شفتاها السفلى نابت عن عينيها المطرقتين ، فوشت باضطراب داخلها من رعشة جرت فيها . فضلا عن الشحوب ، وان تخلف شىء عن حمرة وجهها على قمة خديها .

كان ينتظر فى شوق ليرى ماذا ستخرج من الكيس .. مصيبة كبرى إن صح تخمينه وأخرجت شيكا . لطفك يارب إنها لا تزال صغيرة .

ولم يحدث شىء مماكان يتوقع، لأن الفتاة لم تخرج إلا قرشا، وطلبت من الموظف أن يعطيها طابع بريد؛ ففعل وهو لايزال يفحصها بعينه ، لأن المقدمة الضخمة غير متناسقة مع هذه النتيجة التافهة ،

وهمت أن تنصرف بعد أن أخذت الطابع ، واستدارت نحو الباب حتى بدا خصرها واهنا كأنه ضغط بين كفين ، لكنهـا عادت فتراجعت . وسألت فى استحياء :

ــ أنا أسأل عن رسالة باسم الآنسة سعاد . تحفظ فى شباك البريد .

وأطرقت تنظر نحو البلاط ووجهها متقد بحمرة غير عادية ، وجرى فى قلب الموظف الذى أصبح لا يعذر أحدا غضب تمازجه شفقة قليلة . إنه أب فى الخمسين لفتاة فى الخامسة عشرة ، فى مثل سنها . لذلك فهو ينظر إلى الموضوع نظرة أى « مالك » إلى مال يسرق ، حتى ولو كان مال غيره ، فوضع الرسالة على الحاجز وترك عينيه الواهنتين تشيعانها نحو الباب .

وفى مساء هذا اليوم انصرف الموظف متأخرا شيئا ما . كان قد مر على بيت أحد أصدقائه فزاره ، وهناك تناول الرجلان شئون البيوت والأولاد والمتاعب التى تصاحب تربية البنين ، والمشاكـل التـى تصاحب تربية البنات . ووجد موظف البريد فرصة ليحكى حكاية العذراء المجهولة التى تتلقى رسائلها عن طريق المكتب . واستغفر الرجلان الله . وحوقلا ومصمصا . وطلبا من الله الستر وتلفت كل حوله فى صمت كأنه يخشى أن يدهمه القطار ..

ولما وصل موظف البريد إلى بيته ، سأل من فتح له الباب عن ابنته ثريا ، فعلم أنها فى غرفتها مشغولة بالمذاكرة ، وقلقنا على أبنائنا يتحرك فى باطننا إذا رأينا أبناء غيرنا وقد أصابهم مكـروه كحكاية المال الذى يسرق تماما . لذلك فإنه فتح عليها الباب فى

صمت على غير عادته ، فرأى « أباجور » المكتب ذا اللون الأحمر قد ألقى ظلالا جميلة على وجهها الساهم ، وكتابا مدرسيا مفتوحا ؛ وشفتاها تهمسان بما تقول . وكأنما أوحت إليه الطمأنينة البادية على ملامحها أن يطمئن ، فإن وجود ثمار تالفة على شجرة من الأشجار لا يعنى بتاتا أن الآفة فتكت بكل ما تحمل .. وهذا هو مثل الدنيا .

واستنجدت الأم ، زوجة موظف البريد ، بقانون الوراثة حين قص عليها زوجها قصة تلك الفتاة . فقالت له : « هى لأمها أو لخالتها أو لعمتها من غير شك أما بنتنا فليحرسها الله » .

ثم استغرقا فى النوم ..

ومضت عشرة أيام على الرسالة ، وخلا مكتب البريد من الجمهور تقريبا ، ولم يكن قد بقى على ميعاد العمل سوى بضع دقائق . وكان نظر الموظف يعبر من خلال الباب إلى فضاء الشارع ، فرأى شبحا يرف . لم تقف فى هذه المرة ، بل تريثت كمن يريد أن يضبط ساعة ؛ لأنها نظرت فى ساعة معصمها بعد أن لمحت عينها الساعة الكبرى فى صدر المكان .. ومرت بسلام .. وأدرك الموظف أنها مصادفة ، وأيقن أنها لن تعود فى وقت قريب ، وربما إلى الأبد ، لأن أنوثتها كانت خائفة تخطو فى طريق المغامرة متثنية متعثرة ؛ كأنها فى الحذاء النسوى ذى الكعب العالى لأول مرة . لكن .. لا تلبث أن تألف هذه الأشياء كما ستألف قدماها الكعب العالى فى يوم ما ..

هذه الأفكار التى استغرقته ، وكان رأسه بين كفيه وشبح فتاة

ضعيفة دقيقة قليلة التجارب يخر صريعا تحت مكر شاب خبيث . فتنهد .. ونسى الفتاة وذكر إبنته ثريا ، لأنهـا فى مثـل سنهـا ، وقامتها ، ولم تلبس الكعب العالى حتى اليوم ، وتنهد مرة أخرى ؛ فى حزن وقلق كالمالك الذى رأى مال غيره وقد سطت عليـه اللصوص .

وتوقف عن التفكير لأنه أفاق على صوت يسأل :

ـــ هل من رسائل جديدة باسم الآنسة ؟

وقطع عليها سؤالها حملقة مفاجئة من وجهه المذهول ، فلم تكمل لأنها عرفت أنه عرف ، وبعد ثوان كأنها ساعات هز رأسه فى حركة بندولية دلالة على النفى وشفتاه مزمومتان لا تقولان شيئا . فأدارت ظهرها ، وأتاحت له مرة ثانية أن يرى خصرها الواهن الذى لا يكاد يتحمل ضغطة .

وفى نفس المساء أطل هذا الأب الموظف على ثريا فى حجرة المكتب . كان خائفا من شيء لا يمت له بصلة فلما رأى النور الأحمر ينعكس على السقف من غطاء المصباح ، ووجه إبنته فى الضوء ضمن نطاق الهالة البيضاء ، وورقات الكتاب تلمع تحت عينيها الجميلتين ، حياها تحية المساء ، وابتسم لها وتراجع .

وعادت زوجته تؤكد له صحة قانون الوراثة : « هى لأمها أو خالتها أو عمتها من غير شك .. لا تحزن » . ثم استغرقا فى النوم

وارتفعت عشرة أيام أخرى. ووردت رسالة باسم الآنسة سعـاد (تحفظ فى شباك البريد) ، ولكن الآنسة سعاد لم تعد .

وانتابه قلق، كأن الموضوع شخصى بحت ، وكلما أصاب مكتب البريد نوبة من الهدوء تخيل أنها ستظهر ... ستأتى من الشارع أو تنبثق من الأرض أو تسقط من السماء . ستأتى على أى شكل . ولكنها لم تأت .

وجاءت رسالة أخرى فأصبح للآنسة سعاد خطابان فى شباك البريد ، وزايد قلق الموظف وبدأت أفكاره تتحول إلى اتجاه آخر . لم يكن غضبا ولا نقمة حتى ولا شفقة . كان حب استطلاع صرفا خالصا من ذلك الذى ينتاب أى شاب حينما يطارد حبيبين ، حتى كان مجرى أفكاره وهو واضع رأسه على كفيه لا يخرج عن هذا المجال .

هل تخاصما ؟ أهى مريضة ؟ هل التقيا فى الفترة التى انقطعت فيها الرسائل فانطفأ الشوق بوسيلة ما ، ثم عاد فتجدد ، فتجددت بعودته الكتابة ؟ كيف استطاع خصرها هذا الذى يطوق بسبابتين وابهامين على شكل دائرة ، أن يتحمل ضغطة ذراع .

وأفاق ، .. لأن شخصية الوالد ـــ فيه ـــ زحزحت الشخصية الأخرى ، وذكر من فوره ابنته ثريا ، وتصور إنسانا غير شرعى يضغط على خصرها المتوسط ، لكن .. ما لبث أن تذكر قانون الوراثة ...

ودخلت الآنسة الصغيرة مكتب البريد بطريقتها الخاصة ؛ تلكأت عند الباب ، وتلفتت ، وألقت نظرة على الساعة المعلقة فى صدر المكان .

ووقعت عليها عين الموظف ، خفق قلبه وجف ريقه ، لأن آثار معركة قوية كانت لا تزال ماثلة على وجهها لم تنفض بعد . كانت نحافتها الطرية تبدو مجهدة من آثار وعكة ، وفى صوتها رقة مالت

إلى الضعف ، وحتى مشيتها كانت أكثر هدوءا وأزيد ترددا . وبدت لخاطره كأنها شبح جميل يرتدى البياض وينسرب تحت ضوء القمر ، بين خضرة الحقول ، ولم يشعر نحوها بقسوة : كأنما تقمص فى هذه اللحظة شخصية إحدى العجائز اللائى كن يجمعن بين الأحباب فى حكايات « ألف ليلة » ... ربـاه ... ما بالها ؟ .. إنها مسكينة .

ولم ينتظر حتى تسأل ، بل أعطاها الرسالتين ، فى صمت ، ونظر إليها وهى تستدير . وتنهد .

وبمرور الأيام وفعل الزمن الذى يصنع فى نفوسنا العجائب ، ابتدأت قصة هذه الآنسة الصغيرة تغيب عن ذهن موظف البريد .

حتى كانت ليلة صيف ..

ترك هذا الموظف المدينة الصغيرة ومكتب البريد الصغير ليقضى أسبوعا فى الإسكندرية . ولم تكن الإقامة فيها لتكلفه شيئا لأنه سينزل ضيفا عند ابنته ... ابنته ثريا ... نعم هى ، فقد تزوجت أحد الموظفين فى هذه المدينة .

وحين يكتب على المرء أن يؤدى فى مهنته عملا شاقا ، فإنه يكتب له ـــ تكملة لذلك ـــ أن يشعر بطعم الراحة ، كالريفى الخشن حين يحس نعومة المهلبية سواء بسواء . لذلك فإن موظف البريد كان يشعر أنه فى الخلود لأنه يمر بفترة غير عادية كل شىء فيها ممتاز بلا شك .

ودخلت فى إحدى الأمسيات عندهم ضيفة شقراء ، دقيقة رقيقة ذكرت الضيف بالآنسة سعاد .. التى كانت تسأل عن الرسائل منذ عام على التقريب .

كانت كأنها أختها ، لكن مجرى الحديث دل على أنها اسكندرانية الأصل ، إذن فليس هناك علاقة !!

ورجع الموظف فى غمار الماضى ، فتذكر هذه الفتاة ، وهتف فى داخله هاتف يقول له : « إنها ماتت » فتألم .

وبعد أن إنتهت السهرة ، أحس الضيف بقوة دافعة تحمله على أن يذكر القصة ، فبدأها بقوله : « إن موظف البريد كثيرا ما يقف على المآسى مكتوف اليدين ، يرى ولا يستطيع أن يصنع شيئا » واستطرد :

وقد ذكرتنى هذه الشقراء بشقراء أخرى ، ولكنها كانت صغيرة . وقص القصة عليهم بحذافيرها . ثم ساد الغرفة سكون يشوبه تنهد وضحك وتعليق لا يخلو من الغموض ، وما لبث ثرياً أن خرجت من المكان ، فاختلى الزوج بالأب .

وقال الزوج فى دعابة خفيفة :

ــ ألا تؤمن بالحب يا عمى ؟

فتلجلج عمه ونفى وأثبت ثم أثبت ونفى ، ثم تلجلج ثم سكت ، ثم عاد يسأل زوج ابنته قائلا :

ــ قل لى : ما رأيك أنت فيه ؟

ــ رأيى فيه أنه كالنار ...

ــ عظيم ، نحن متفقان . هذا رأيى فيه ، هى شىء خطير جدا .

ــ لم أكمل كلامى بعد يا عمى .

ــ تفضل .

ــ إذا كانت غايته شريفة كانت النار التى تنضج الحلوى ،

وإذا كان تسلية وترفيها كان كالنار التى تحرق البيت .

ـــ ها . ها . ها . لكن هو نار على كل حال !! أفادك الله يا بنى .

ـــ لكن ما قولك فى حب يوصلك إلى الزواج ؟

ـــ أحل من لبن الأم .. ها . ها . ها .

وظل يضحك حتى كاد يختنق .

وكان المساء نديا ، تغمر الإسكندرية فيه طراوة البحر ، والبيت سعيد يضيء أرجاءه السرور . فأكمل الزوج قوله :

ـــ تقول إن فى المكتب رسالة حتى اليوم باسمها ولم تحضر لتأخذها ؟

ـــ نعم !

ـــ إذن .. حولها باسمى . لأن التذكار ينقص هذه الرسالة ؟؟

فحملق فيه الرجل وقال بعد فترة :

ـــ هل أفهم أنك ...

ـــ أحببت زوجتى فى مدينتكم الصغيرة حين كنت فى زيارة عمتى ، فلما تعارفنا وعدت إلى الإسكندرية كان من الضرورى أن نتراسل ، ولما كان أبو زوجتى موظفا فى مكتب البريد الوحيد ...

ـــ لا تكمل . فهمنا . إذن فالآنسة الصغيرة صديقة كانت تؤدى خدمة . يا سلام .

ثم نادى :

ـــ ثريا .. ثريا ..

لكنها لم تدخل من الكسوف .

ونام الضيف وهو يذكر الشخصيات التى يسخرها الحب بقوته لخدمة الغير ، كما يسخر الله الرياح فى تلقيح الأشجار ، وشخصية العجائز اللائى كن يجمعن الأحباب فى حكايات« ألف ليلة وليلة » ..

وفى الصباح نسى الموضوع تماما .

أقصر طريق

« إن الذى يقنع من الدنيا بالنهايات الصغرى تبخل عليه الدنيا بكل شىء » .

* * *

لم أكن قد رأيته منذ كنا معا فى المدرسة الثانوية .

منذ عشرة أعوام أو تزيد ، لأنه انقطع فجأة عن المدرسة ونحن فى السنة الثالثة ، سافر إلى بلده فى عطلة العيد ولم يعد . وظل درجه فى الركن الأقصى من الفصل نحو اليسار كأنه رأس بلا فكرة ، ولم يثر غيابه انتباه أحد من المدرسين ؛ لأن حضوره لم يكن يثير انتباه أحد.

وفى الدرج قفل من طراز رخيص كثيرا ما كان يتعطل ، فيقفله (على الفاضى) ، ليوهم الناس أن درجه محصن . وفى القناة الممدودة فى مقدم الدرج آثار حبر أزرق ، وعلى الغطاء البنى للقمطر كلمات حفرت بمسمار . وكل شىء فى مكانه يدل على اهمال يوشك أن ينقلب نسيانا .. حتى الشباك المجاور لمقعده كان فيه مصراع مكسور .

إن أثار اهتمامنا بشىء . فلم يكن يثيره إلا بعزلته الفريدة ، وسلوكه المتشابه إلى حد يجعلك تظن أنه مرسوم ؛ فهو فى الفصل فى أحد الأركان ، وعلى المائدة فى أحد الأطراف . وفى الفسحة يبحث عن الظل أو عن الشمس بعيدا عن التلاميذ .

وكان يدخن فى سن مبكرة وهيئته لا تدل على اليسار فأشاع عنه التلاميذ الأشقياء أنه يجمع أعقاب السجاير ، وكل شىء فيه هادىء بطىء حتى الإجابة عن سؤال المدرس ، وكان يستعيد السؤال غالبا ، فيحدث أن يلقى عليه المدرس السؤال مرتين من باب الاحتياط ، فيصر هو على الاحتفاظ بحقه ويستعيده من جديد ، ويمشى ببطء وينفخ الدخان ببطء .. وزعم بعض التلاميذ ـــ بيننا وبينه ـــ أن أم زميلنا حملته فى عشرة أشهر .

غير أنى كنت أميل إليه ميلا غير واضح ولا محدود . لم أستطع أن أفصل فيه بين جانب العطف وجانب الحب . كان يثير الشفقة أكثر مما يثير السخرية ، ومن أجل ذلك لم يحدث ـــ إلا قليلا ـــ أن سمع من أحد منا كلمة تجرح إحساسه .

ثم غاب فجأة بعد إجازة العيد ، ولم يعد . وسألنا عنه ، ولكننا لم نعرف حقيقة أمره . وبقى درجه شهرا وهو صامت ، ولم يعد الفراش يصب فى دواته حبرا فجف المداد ، وعبثت يد مجهولة بالقفل المتدلى من « الرزة » فظهر أنه (مقفول على الفاضى) ونسيه المدرسون تماما لأن حضوره لم يكن يثير انتباه أحد . وسكت عنه التلاميذ .. لكننى كنت لا أزال أذكر شخصه .

وفى صباح يوم سبت شتوى مقرور دعانى ضابط المدرسة لأمر ما ، فساعد البرد على جريان الرعشة فى مفاصلى ، لأن ضباط المدارس لم يكونوا يدعوننا لنتناول معهم فنجالاً من القهوة ، فلما مثلت بين يديه رمقنى بنظرة لم أر فيها مكروها ، ثم انصرف عنى إلى ورقات يقلبها بين يديه . ثم فتح درجا وأقفل درجا ، ونظر فى سلة

المهملات ، ثم عاد يقول : آه .. ها هو ذا (رحت فين) .. تعال . والتقط خطابا بين الورق ثم استطرد : اسمع يابنى ، أنت تعرف ... تعرف بلا شك .. مين ؟ مين ؟ .. تعرف (أبو مادين) زميلك فى الفصل ..

فخيل إلىّ أنه مات ، وكدت أهتف ليرحمه الله . ولست أدرى لم سبق هذا الخاطر ، خواطر شتى تتزاحم على رءوسنا فى مثل هذه المواقف ، لكننى سمعت صوت الضابط يقول بعد لحظة : لقد انقطع عن المدرسة نهائيا لأسباب لا تهمك ، ولكنه أوصى بأن تتسلم أدواته حتى يحضر إلى القاهرة فيأخذها منك .. (ياالله يا سيدى) .

فأدرت ظهرى خارجا من عنده دون أن أتكلم ، وجعلت أفرك كفا بكف وأنا فى طريقى إلى الفصل ، وفى قلبى الصغير عاطفة كبيرة غير واضحة لم أستطع أن أفصل فيها بين جانب ألمى وجانب اعتزازى .

لكن دواته جفت من الحبر بقية أيام السنة .

* * *

وكنا على أبواب الامتحان فى نهاية العام نفسه .

وتقدمت خطا الليل وأنا جالس إلى كتابى مستغرق الفكر ، والحى الوطنى آخذ فى الهجوع . فسمعت نقرة خفيفة على مصراع الشيش المفتوح القريب من الأرض ، فغمغمت أشتم الخادمة اللعينة التى كانت رسولا مزعجا بينى وبين إحدى الصديقات ، وأخرجت نصفى من الشباك لأقول شيئا ، لكننى سمعت نقراتها قد

انتقلت إلى الباب من خلفى ، فلما فتحت ، رأيت فى الظلام الراقد فى فضاء الحوش شبحا لرجل .

قلت له : « تفضل » دون أن أعرف من هو ، فلما خطا إلى الداخل هتفت وأنا أعانقه : « أبو مدين ؟ .. مرحبا .. بك يا صديق » . لكنه لم يرد بصوت مرتفع وجلس على أحد الكراسى .

وهناك أشياء تسبق أصحابها بالكلام عن أحوالهم قبل أن يتكلموا .. أشبه بالأطفال الثرثارين الذين يحكون للناس فى حضرة آبائهم ما يفعله الآباء فى البيت .

ولما أخرج أبو مدين منديله ليمسح به عرقه ، حكى المنديل ما يقاسيه من فاقة ، وشاركته بقية الملابس . أما هو فقد كان صامتا لم يتكلم حتى هذه اللحظة .

وقمت فى صمت . فناولته جلبابا لينام فيه . فبدأ التردد فى عينيه وان كانت يده ممدودة لتأخذ الجلباب ، ثم قال بعد أن وضعه على ركبتيه .

ــ أشكرك ... جئت فقط لآخذ كتبى ، وما كنت أريد أن أضيع وقتك .

واستغرق فى النوم بعد استلقائه على الفراش بدقائق ، وكان ممدودا على آخره وهو نائم ؛ كأنه ميت . وكنت ألقى عليه النظرة بين الحين والحين فيزيد يقينى أنه مشى على رجليه طول النهار .

حتى أصبح الصباح .

وكان أول شىء عمله بعد (صباح الخير) أن ذهب إلى سترته السوداء المتدلية من المشجب ، ودس يده فى جيبها الجانبى

فأخرج سيجارة ، وجعل يصلح من شأنها قبل أن يشعلها ، لأنها لم تكن فى علبة ، ثم جعل ينفخ دخانها ببطء وهو جالس كأنه حريص على ألا يفارق الدخان تجويف فمه .

ثم علمت عن أبى مدين أشياء جديدة :

كان يرينى كراساته التى رأيتها من قبل ويشير فيها إلى رأيه فى الحياة . كان يأخذ النهايات الصغرى فى كل شىء ، كان المهم عنده هو أن ينجح ، أريد أن أقول : « أن يمر ... » المستعجل والبطىء يلتقيان عند المعدية : مش كده ؟

هذا ما قاله لى وهو يشير إلى إحدى الدرجات التى نالها فى امتحان ما ، ولما كانت غايته من التعليم أن يجد عملا ، وغايته من العمل أن يجد رزقا ، والمقصود بالرزق أن يعيش فقط فقد وفر على نفسه المتاعب ، خصوصا بعد ما تحرر بموت أبيه . وهناك بضعة فدادين يزرعها ، وإذا مشى كل شىء حسب تقديره ، فإنه سيصبح بعد قليل ميسور الحال .

وفكرت فى البطء الذى يمشى به صاحبى فى الحياة وتذكرت أن السلحفاة قد تصل إلى الغاية ... لكن كم عدد السلاحف التى وصلت إلى الغايات ؟

ثم جعلت أرقب وجهه وهو يمضغ لقم الفول ، وكأنما نسى أنه يأكل ، وأتفرس فى الملامح الهادئة التى تنم عن ركود عصبى عنيف .

وأخذ أبو مدين كتبه وكراساته ، ثم سلم ، وانصرف . وكنت أرقب خطاه على الطريق من نافذتى ، وأنا واقف فى سرة الغرفة ،

فأرى سترته الطويلة الواسعة لا تكاد تهتز .

ثم نسيه الناس .

لأن عشر سنوات تقريبا تفعل فعلها فى ملامحنا وأفكارنا .

وربما فعل عام واحد فى حياة شخص من الأشخاص ما لا يفعله نصف قرن .

وكنت عصر يوم من الأيام فى طريقى إلى العمل . كنت سائرا على قدمى ، فتوقفت فجأة حين رأيت ظهر رجل . نعم ظهر رجل .

كان بين ياقة القميص وسفح الشعر على عنقه علامة واضحة يعرف صاحبها بها من مليون رجل ، كانت أثر كى قديم لأنهم يعالجون المرضى فى الريف بالكى أحيانا .

كان يشعل سيجارة وهو لائذ بالحائط حتى لا ينطفىء العود ، فوقفت أتأمله ولم يشعر بى طبعا . وكدت أضحك من (أبو مدين) للمرة الأولى فى قصتى معه ، لأن السيجارة كانت فى حالة يرثى لها . كانت متكسرة (مفعوصة)تدل على أنها (هرست) فى الجيب . فأمهلته حتى انتهى واستدار إلىَّ ، وقلت له : أهلا .. صديقى .. أين أنت ؟ وكدت أتراجع إلى الوراء ، لأنه لم يكن (أبو مدين) ، ثم عدت فثبت فى مكانى لأننى عثرت فى ملامحه على معرفتى القديم . كان قد تغير كثيرا .. عشر سنوات .. تفعل فى الملامح والأفكار الشىء الكثير .

وابتسم لى وأشرق وجهه ، وقال حين تبين فى حركاتى دلائل العجلة :

ـــ إلى أين ؟
ـــ إلى الجريدة .
ـــ أأنت صحفى ؟
ـــ نعم . ألم تقرأ شيئا مما كتبته ؟
فارتبك وتلعثم وهو يقول :
ـــ متأسف . لا تؤاخذنى فأنت تعرف ميولى من قديم .. لكن .. أنا سعيد بأخبارك وهل من الممكن أن أتحدث إليك وقتا ما؟
فأجبته :
ـــ نعم . والآن سر معى .
وكانت خطواتى سريعة بطبعها وخطواته بطيئة كما خلقها الله ، فكان يجد السير إلى جانبى بحركات لم أتبينها إلا أخيرا ، وكانت تدعو إلى الضحك . وقص علىَّ القصة . كانت طريقته فى الزراعة هى نفس طريقته فى المدرسة . النهاية الصغرى دائما . النهاية الصغرى فحسب النجاح فقط أريد أن أقول : المرور .
كان صبورا جدا والحقل لا يعرف الصبر ، متسامحا أبدا ومواسم العمل لاتعرف التسامح ، ومسالما ، ودودة القطن تعلن الحرب كل عام فجأة .
زرع بنفسه ، ثم أجر لغيره ، ثم رهن أرضه ، ثم باعها ، ثم استهلك ما باعه ، وهذه هى درجات السلم الموصل إلى الحضيض ..
وفتش فى جيبه عن سيجارة أخرى ، فقدمت له سيجارة وأشعلتها له . وكنا قد وصلنا إلى باب الجريدة فسلم علىَّ وفى عينيه طلب .

قلت له :

ـــ ربما استطعت أن أكون فى خدمتك .

فأجابنى بعد أن أخذ من السيجارة نفسا طويلا جدا :

ـــ أشكرك . هذا أملى فيك . أنت تعرفنى ... أى عمل . أريد أن أعيش فقط .

فقلت بينى وبين نفسى وأنا أصعد السلم : مسكين . النهاية الصغرى . وأقصر طريق . له الله ... إنه لم يتغير .

الأكثر سعادة

لم أكن رأيت الريف قبل ذلك ولا كونت عنه فكرة واضحة ، كل ما كنت أعلمه عنه كان محصورا فى قراءتى ... وصف الريف فى قصة ، أو تقرير وزارة الصحة أو الشئون عن المعيشة وطرق الإصلاح ونظم الوقاية . وكنت أتمنى فى قرارة نفسى أن تتاح لى فرصة فأرى الريف . أعنى القسم الأعظم والنصف الأخضر من أرض بلادنا .

وكنت طالبا بإحدى المدارس الثانوية ، أيام كان قلبى مسرحا لهذه الأمانى ، ثم وجدت نفسى فجأة قد انقطعت عن الدراسة ، ووجدت نفسى كذلك فجأة — وهذا أصعب ما فى الموضوع — أشبه برب أسرة يجب أن يكسب لها شيئا ؛ لأن أبى المقيد فى سجل الأحياء كان ميتا أو شبه ميت فقد لحقه مرض شديد أقعده عن الكسب ، وكنت الثانى فى الصف بحكم أننى الأكبر وأن الثالث والرابع والخامس فى طابور الأسرة كانوا .. نساء .

ولما انحلت مشكلة المكسب ووظفت فى وزارة الصحة على عمل مؤقت حتى ييسرها الله ، تقرر سفرى إلى إحدى القرى مع فرقة لمكافحة الأوبئة ، وكان شتاء قاسيا غريبا ، والعمل جديدا مفرحا على أى حال ، والنفس فى عز الشباب طامحة قوية متطلعة ، كل شىء أمامى يدفعنى إلى الأمام بشهية .

ويوم نزلت القرية أصابني قدر كبير من خيبة الأمل ؛ لأنني لم أجدها مطابقة للصورة التي رسمتها لها في خيالي ، وعزوت ذلك فورا إلى عدة أشياء كل واحد منها يعتبر سببا كافيا لانقباضي وهمومي : منها أنني ربيب المدينة فلم أر القرية ولم آلف حياتها ، ومنها أنني شططت في الخيال فرسمت القرية في صورة جنة ، ومنها أنني لم أغترب عن أبي وأمي واخوتي قبل ذلك قط ، وأن الحنين إلى الأهل يفسد على العينين منظر الفردوس ، ومنها أن العمل كان عملية تنظيف كثيرا ما كنا نعاني فيها مشقة ؛ ولكننا — أنا وزملائي وزميلاتي — استطعنا أخيرا أن نقسم العمل إلى قسمين : قسم سميناه واجبا فأديناه بأمانة ، وقسم اعتبرناه تجربة جديدة فأديناه في طاعة ولذة .

وشيئا فشيئا ألفت الحياة في هذه القرية . وألفت العمل والعسرة التي كانت تحوطه ، ومددت أسرتي بجزء كبير من مرتبي ، لأنني كنت قليل النفقات بحكم إقامتي في الريف ، فسعدت بما عملت حتى كدت أنسى كل المتاعب .

* * *

ومضت الحياة هادئة رتيبة متشابهة الشروق والغروب والترع والحقول ، لم يتخللها حادث ما ، إذا استثنينا العلاقة القلبية البريئة التي قامت بيني وبين إحدى الزميلات في العمل .

وكنت تعودت عادة طيبة نشأت أول الأمر من « الإحراج »، ثم رعت نفسها بنفسها حتى أصبحت ذات جذور ، وتلك هي عادة الصلاة ، فكان يلذ لي أن أنضم إلى صف المصلين في المسجد

كل عشاء بعد جهد النهار الطويل ، وأن أبتهل إلى الله ، وأن أستمع كذلك وأنا خارج من المسجد إلى تهامس الفلاحين ، وبعضهم يقول لبعض :« شاب طيب .. هذا الغريب ابن الحلال ...إنه يؤتمن على دخول البيوت » . وتدخل هذه الكلمات إلى قلبى فتمنحه بردا مريحا ، لم أستطع أن أعلله ما دمنا نصلى لله ونطلب الجزاء ممن نصلى له والإنسان خير وشر ورحمة ونقمة وملاك وشيطان .

قد تجلى ذلك واضحا بالنسبة لى فى إحدى الأمسيات ، بعد أن فرغت من الصلاة الخاشعة الطيبة ، وهممت بالانصراف ، فتفقدت حذائى .. فلم أجده . لقد أخذه أحد الناس عامدا متعمدا ، أو مخطئا غير قاصد ، فأنا لا أستطيع أن أجزم !! المهم فى الموضوع هو أنه كارثة مزدوجة بالنسبة إلى ، لأن الحذاء كان جديدا وحيدا على التقريب ، ولأن النقود التى معى كانت من المستحيل أن تعيننى على شراء حذاء وفى البلايا شق يضحك ، ونحن نضحك من الذين يتزحلقون فيسقطون على الأرض وإن كنا متألمين سقطتهم ، لذلك حرصت على ألا تبدو مشكلتى أمام المصلين شيئا يثير الضحك . فتلكأت فى مكانى حتى انصرف كل الناس ، وكنت أبتهل إلى الله بحرقة أن يجازى ابن الحرام ، وأن يسترها معى حتى لا أنكشف . وتجرأت فاعتقدت أننى فى ميدان جهاد ، فلا يصح أن يصيبنى مكروه . ألست أجاهد فى تحسين الصحة العامة وفى رعاية أسرتى الفقيرة ؟! ثم ضحكت من نفسى وأنا قائم لأخرج حين تذكرت أن الجهاد لا يكون حقيقيا إلا إذا حف

بالأذى .

وتسللت فى الظلام حافيا إلى الحجرة التى أسكنها ، وجعلت هناك أفحص حاجاتى ، فوجدت أن عندى حذاء آخر . أوه ... لقد طال عليه الأمد حتى جف جلده وتشقق وتكرمش ، ولم أكن وضعته بيدى فى الحقيبة ، ولعل أمى هى التى فعلت ذلك دون أن تشير على ؛ لأنها كانت — وهذا طبعها دائما — ترى لكل شىء منفعة .

وفحصته كما تفحص لقطة وجدتها فى الطريق ، وسرى عن نفسى شيئا ما ، حين ألفيته صالحا نوعا . وهو يحتاج إلى شىء من الدهان وإصلاح النعل وخياطة لفتق صغير ... ثم ... يستعمل .

وتدارك زملائى الأمر عنى فى الصباح التالى فنابوا عنى فى العمل .

وذهبت للحذاء (الجزمجى) الوحيد فى القرية ، وأنا لابس شبشبا وجلبابا ومعطفا لأنه لا يمكن أن ألبس البدلة .

كان دكانه فى آخر القرية بينه وبين الحقول مسافة قصيرة ، وكان متواضعا جدا ليتناسب مع البيئة التى فتح فيها ، ورأيته جالسا على كرسى قصير وأمامه منضدة عالية عليها أدواته ، وهو وحده فى الدكان لا يساعده عامل ولا صبى ، وكان متوسط العمر على وجهه آثار الصحة وفى كفيه خشونة تتناسب مع الصنعة .

ورد على بوجه رزين لا ينبىء عن شىء لم يكن فيه تودد ولا ترحيب ، بل إننى استطعت أن أظن أنه يزاول هذه الصنعة مزاولة استغناء أو تضييع وقت ؛ فقد كان متسما بعدم المبالاة ، وألقى

على نظرة خاطفة وهو يفحص الحذاء ، وأحسست بوطأة الخجل وهو يقلبه بين يديه كما يقلب الطبيب طفلا ميتا ؛ وكأنه يقول لى بغير كلام : لم يبق فيه يا سيدى شىء يصلح .

ثم وضعه على المنضدة أمامه وانصرف إلى خياطة حذاء جديد على وركيه . كل هذا ولم يرفع إلى طرفا ، فأحسست بقلق وضجر وغيظ حتى هممت أن أفعل أحد شيئين إما أن آخذ حذائى وأنصرف فى صمت وأبادله إهمالا بإهمال ، وإما أن ألطمه على وجهه الذى لا يعبر عن شىء .

وبعد فترة جاء إلى صوته وهو مطرق نحو حجره :

ـــ أمرك يا سيدى ...

قلت له :

ـــ أريد أن تصلح لى الحذاء .

فأجاب دون أن يغير وضعه ، وكأنه يتحدانى :

ـــ خمسون قرشا .

فقلت بهدوء ولكن بغيظ :

ـــ أنا لا أسألك عن تكاليف الحذاء الجديد .

فأجاب بهدوء أبرد من هدوئى وهو يشد الخيط :

ـــ مفهوم .

وسكت كل منا ، وجعل يعمل إبرتيه المقوستين فيما بين يديه دون أن يكلمنى ، وكاد يفلقنى نصفين ، فقلت له :

ـــ ألا يكفى ريال واحد ؟

فأجاب مغمغما :

ـــ يفتح الله .

فقلت بغيظ :

ـــ هل تظن يا سيدى أننى كنت فى حاجة إلى مثل هذا الحذاء البالي لولا أن أهل قريتكم سرقوا حذائى . هه ... هل تظن ؟

فأجاب ووجهه إلى حجره أيضا :

ـــ ليس فى الدنيا شيء يستحق الحزن ! خمسون قرشا !

ـــ لا . ريال .

ـــ يفتح الله .

وخطفت الحذاء وانصرفت قبل أن أضربه بشيء مما أمامه ، وسرت فى الطريق أتمتم بدعوات ولعنات وتمنيات مختلفة ، حتى وصلت إلى حجرتى وجلست أستعيد الموقف . ولما هدأ غضبى أخذت الحذاء بين يدى وقلبته يمينا وشمالا وفحصت عيوبه ، ثم قلت :

ـــ لا مفر . هل أسير حافيا ! ليكن ما يكون !!

وعدت إليه ، وتوقعت أنه سينظر إلى بشماتة ، وكان جالسا كما كان يعمل إبرتيه المقوستين . وألقيت عليه السلام فلم يرفع إلى طرفا ، وجلست فلم ينظر إلى ، ووضعت الحذاء أمامه فلم يتحرك ولم أتكلم ، ولم يتكلم . عند ذلك قلت :

ـــ أرجو فقط أن تنتهى من إصلاحه هذا اليوم .

ـــ حاضر .

فبلعت ريقى وقلت بشجاعة :

ـــ ألا يمكن أن تتنازل عن عشرة قروش ؟ إنك تبالغ !.

فقال :

ـــ أنت تعرف جيدا الحالة التى آل إليها حذاؤك .

فأجبت بغيظ :

ـــ افرض أننى لا أملك هذا المبلغ ؟

ولمت نفسى على هذا السؤال ؛ لأنه لا يليق بالكرامة ، وتوقعت أن يرد هذا الرجل البارد بكلمة مجاملة ، لكنه قال دون أن يغير ملامحه ولا وضعه :

ـــ بسيطة ، امش حافيا .

فصرخت فى وجهه :

ـــ ماذا تقول ؟

فرفع إلىَّ وجهه وابتسم للمرة الأولى ، وكأنما بدا وجهه جميلا جدا ، رائقا ، أسمر ، سليما ، فيه وداعة وصبر وشجاعة . وقال بنفس الصوت الخافت :

ـــ لا تغضب ، ليس فى الدنيا شىء يستحق الحزن .

قلت له .

ـــ أنت لا تعرف كيف تتكلم .

فأجاب :

ـــ يخيل إليك ذلك . أنا لم أخطىء ، فى الدنيا ناس يتمنون على الله أن يسيروا حفاة ويكونون سعداء جدا بذلك . ألا تصدق ؟ انظر ... انظر ...

وفك تربيعة رجليه ، وأظهر إحداهما من تحت جلبابه ، فإذا بها مقطوعة ، وكان مع ذلك يبتسم فى هدوء .

عند ذلك ذكرت المثل : « خرجت أطلب حذاء فوجدت ناسا بلا رجلين » .

فعدت إلى مسكنى أكثر هدوءا وسعادة .

فرصة للسعادة

كان هناك خطأ كثير يقع فى إدارة المعاشات بسبب هذا الموظف . لم يكن خطأ حسابيا ولا نظاميا بل كان خطأ عاديا يدعو إلى الضحك .

كان علي سيماء الرؤساء وهو موظف صغير ، وعليه سيماء الأغنياء وهو رجل فقير ، وفيه نفخة كبر وهو من أشد الناس تواضعا .

وذلك ... هو عويس افندى .

لا علاقة بين مظهره ومخبره إلا الضدية أو خداع الحواس ؛ طويل يكاد قرص طربوشه يلمس أعلى إطار الباب ، عريض يكاد جسمه ينحشر فى المصراع المفتوح ، يمشى بتؤدة ووقار كما تمشى المواكب ، ويتكلم قليلا ويستمع كثيرا فى خمول وصمت ... والبلادة فى عينيه محوطة بمهابة الضخامة .

أما ملابسه فهى من أنظف ملابس الفقراء ، يحسن رعاية البدلة كما يحسن السايس رعاية الجواد ، ويقول لزملائه : « إنها الشيء الوحيد الذى يستر عورتى . أنا البدلة . لا درجة ولا ثقافة ولا ثروة ولا جاه . ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

ويضحك كأنه مكبر صوت . ويدق كفا بكف كما تصطفق

المضارب .. ومن حادثة واحدة تستطيع أن تعرف من هو ..

وقعت هذه الحادثة صباح يوم من أيام الشتاء ، يوم كان فى ادارة المعاشات شيئان جديدان : مدير جديد ، وبدلة قشيبة يلبسها عويس افندى .

وحين ذهب الموظفون ليسلموا على الرئيس ودخلوا من الباب .. كان من المتبع أن يقدموا بحسب « الدرجات » ؛ لأن الله نفسه قد جعل لنا فى الآخرة « درجات » كذلك .

وحين عبروا منطقة « البرافان » وانكشفت الحجرة أمامهم فخمة فسيحة ، تقدم عويس افندى بدرجته الثامنة وبدلته السوداء القشيبة ، وقامته الفخمة المهيبة ، وتهادى .. وسلم على المدير .. وتبعته الدرجات العلى فى تذمر يثير الضحك ، وخرج بعض الموظفين الذين كانوا لا يزالون على مقربة من الباب ؛ لأن الضحك يقطع أنفاسهم . أما الباقون فقد أخذهم حتى أذهلهم المدير القمىء النحيف ، وهو يصافحه باحترام شديد ، ويحملق فى قمته من فوق ، من وراء منظار سمك قعر الزجاجة .

واعتبره بعض الرؤساء تهريجا واقترح له عقوبة ، واعتبره زملاؤه اندفاعا لا يخلو من غفلة ... أما المدير فإنه عده حادثا مضحكا ، على شرط ألا يتكرر .

وزوجة عويس افندى تعترف له بالاستقامة . وتعترف بينها وبين نفسها إذا ما خلت إلى أفكارهاأنها ليست كفؤا له .

هى امرأة ضئيلة حادة كالصنارة ، ضعيفة الصحة مرهقة بالعمل ، تحاول ــ بكل أنوثتها ــ أن تسد الهوة العميقة

الحقيقية التى تفصل بينها وبين زوجها ، وإذا ناوشتها المخاوف ، اعتصمت بشيئين ليمنحاها الطمأنينة : وداعة عويس .. وكثرة الأولاد .

هذه الوداعة لا تجعله يفكر فى امرأة أخرى ولو أنه فى إدارة المعاشات ، وهذه الثلة المتعاقبة من الأولاد فى ترتيب يشبه ترتيب الطول فى الطابور مسلسلة ، أقوى من الصلب تربطه إلى البيت .

البيت ... الذى لم يذق فيه صاحبه طعم الشبع بضع سنوات . فهو يحلم بأن يشبع من أى شىء يحبه الناس ، لكنه لا يتعدى منطقة الأحلام .

ويمصمص عويس افندى بشفتيه ، ويحملق فى الدنيا بعينين سليمتين لا تخلوان من البلادة . ويذكر الأرزاق ويبتهل إلى الله فى دعابة ، رافعا إليه كفه الغليظة « أن يعيد النظر فى تقسيم الأرزاق . والدرجات » .

على الطبلية زحمة والأكل قليل ، وفى فراش النوم زحمة والغطاء خفيف ، وأصوات كثيرة لأطفال من كل سن ، وقباقيب من كل مقاس متآكلة الحوافى ، وأطباق مشروخة ، وقلل مشرومة ... كل هذا فى الشقة الصغيرة .

ويدبر شأن هذه الأمة ، أم فى ضآلة الصنارة تغسل كثيرا ، وترضع كثيرا ، وتصخب بشدة ، وتطبخ قليلا ، وتنام قليلا ، ولا تكاد تخرج من البيت .

كان استسلام هذين الأبوين للحياة هادئا غير إرادى ؛ كأنه « دوخة » ، لذلك لم يفكرا فى النهاية بل تركاها تأتى ببطء .

وكان الأمر خليقا بأن يسير هكذا ، لولا أن عويس افندى هو الذى تغير . وكان تغيره واضحا يثير انتباه أعمق الناس نوما وأكثرهم غفلة أو حسن ظن .

* * *

ــ ومتى تأتى هذه المأموريات المصلحية يا عويس افندى ؟ . إنك ترجع منها مرهقا شاحب الوجه . هيه ؟ .

فيجيب زوجته بشروده الهادىء :

ــ حتى يشاء الله .

ــ طيب ... آه ...

ــ قولى لا تخافى .. أقول بالنيابة عنك ؟ لم يحدث من قبل أن كلفت رسميا بالسفر .. أليس هذا قصدك ؟

ــ ...

وتلوذ بالصمت ، وقد تكون مضطجعة عند « صفحة » فى السرير عابثة بأحد أزرار جلبابه . وتنظر وتغضى على التعاقب ، فيبدو فى عينيها الكلال الذى ينشأ من فقر الدم ، ولو أنها زوجة رجل يملك ثروة طبيعية بحكم تكوينه لا بحكم معيشته ... كأنه منجم حديد .

ويتبدد الصمت بفعل صوته الأجش :

ــ لا تلقى .

ــ أبدا !

فيرى الرجاء والأمل على وجهها الذى لا يشاء أن يعلن حربا ، وكأنه لا يتردد أن يبيع للمحرومين شيئا من دمه القليل ، فيبتهل هو

إلى الله فى دعابة أن يعيد النظر فى تقسيم الأرزاق .. والدرجات .

* * *

كان عويس افندى قد تزوج من امرأة أخرى وزوجته القديمة لا تعلم . كان يريد « عملا إضافيا » بعد الظهر ، ليزود بالوقود تلك الأفواه الكثيرة التى تنجم فى بيته لأقل سبب .

وتقدم مرة إلى أحد رجال الأعمال ، ووضع مواهبه القليلة تحت تصرفه ، كل يوم بعد الظهر ، فنظر إليه الرجل ثم اعتذر ، وحين أولاه ظهره تصوره صاحب العمل كأنه يركب فى عربة أطفال وتدفعه يد امرأة ، فابتسم لأنه لا تناسب مطلقا بين هذا العمل التافه وبين من يطلبه .

إذن فالزواج خير عمل إضافى يستغل فيه مواهبه لأنه زواج من نوع خاص .

كانت امرأته الجديدة خريجة مخادع ... تلقت دراستها فى ثلاثة بيوت وورثت من آخر رجل مالا ومعاشا . ثم حزنا لا تنساه كما كانت تقول .

والتقت عدة مرات بعويس افندى فى الإدارةفبهرهامنظره ، فلما عرفت حقيقة حاله وأنه صيد لا يحتاج إلى حيلة :

ـــ اسمع يا عويس افندى ... أنت رجل عظيم .

وابتسمت تؤكد وتغازل ، وهزت له رأسا عبث المشيب ببعض شعراته ، لكن الحيوية لم تنته بعد . فقال فى دهشة من مدح على غير انتظار :

ـــ أنا عظيم ... صحيح ؟

ـــ عندى حسابات وأعمال تحتاج إليك .. سأكافئك . فهل توافق ؟

ولم ينم طول الليل ، وظل يحتضن الصنارة الحادة الراقدة إلى جواره ، ويقبلها كما نقبل الحيطان أو ظهور أيدينا إذا فاجأنا حادث سعيد .

ولم تنته الحسابات عند المرأة الجديدة ...

ظل الجمع والطرح والضرب والقسمة فى عمليات كان الزواج نهايتها .

* * *

ـــ ماذا تقول يا عويس ؟ ... هل أنت سكران ؟ ... هل أنت سليم العقل ؟ ... تزوجت ... إن عدد أولادنا ستة .

ـــ ستة ... آه ... عارف والله ... لقد تزوجت من أجلهم .

وأخذها بين أحضانه لكى تسكت ؛ كأنها حزمة من العيدان ، وأخذ يشرح لها الأمر برقة لا تتناسب مع جفاوة صوته :

ـــ ألا تلاحظين أخيرا أن اليسر جرى فى معيشتنا يا أم سعيد ؟ وأننى صرت كثير الملابس ؟ ... صبرا . كفى بكاء ... صدرك يكاد ينفطر من الشهيق ...

لا تريدين أن تسمعى .. حسنا .. هناك شىء آخر يتعلق بالأولاد .. لقد عملت لى بوليصة تأمين لمصلحتهم .. من هذه التى تفعل مثلما فعلت ؟ إنها لا تنجب ... ألا تفهمين ... إنها عاقر .. تزوج.. ..

ـــ إذن قد تزوجت مومسا ... أيها الخائن ، لقد سحت فى

بيتك كما تسيح الزبد على النار ... روح منك لله .

وراح يفكر ... كان يظن أنها لا تستطيع أن تعلن حربا ... كل شيء فيها ضعف وسلام وسكون . غريبة !! أتعس امرأة إذن تثور إذا داست حدودها الزوجية قدم امرأة ... هيه ..

وفيما كان يفكر كانت هي تنتحب ، وطفل رضيع يصرخ طالبا الثدى ، وولد كبير يشرح للذى يليه في مسألة حساب ، واثنان آخران يجران فى الصالة حقا من الصفيح ، وبنت لا تزال تنط الحبل تحت النافذة فى الحارة ، وكل هذا يغطيه شهيق الزوجة المكلومة كما يغطى الدخان نهاية المعركة .

تمتم الزوج فى ضعف حيلة :

ـــ دا مش جواز زى ما انت فاهمة .

فنفد صبرها ، وجرت من أمامه بعد أن ولولت فى وجهه ، كما يفعلن فى المأتم ، ثم لاذت بالمطبخ المظلم حيث جلست على كرسى خشبى واطىء تستمع إلى جلبة صاعدة من المسقط وعيناها عالقتان بمواعين لم تغسل بعد .

وقالت تخاطب نفسها فى إحدى الليالى التى باتها فى الخارج : « خسرت كل شيء ثم ضاع منى .. أنا أدوخ كلما عملت شيئا . كدت أسقط من البلكون صباح اليوم وأنا أعلق قطعة غسيل على الحبل الأخير . أشعر أحيانا أننى غير قادرة على الرؤية وأن دماغى كالحنظلة المنخوبة . هه .. ما السبب يارب ؟ أنا لست حزينة عليه . تبله وتشربه . يستطيع « سعيد » أن يرعانا ولا داعى للدراسة الطويلة ، وبهية عروسة ... آه ... قلبى » .

ويمص الطفل الرضيع ثديا فى حجم الليمونة ، فتغمض عينيها وتدخل فيما يشبه النوم .

وكان عويس افندى يشبع فى البيت الآخر ، وكان مؤملا أن يستفيد أولاده شيئا من وراء هذه المجازفة ، لكنها كانت توافه كلها ... مثل الحلوى القليلة التى يحملها الآباء لأبنائهم من أفراح الناس .

وشيئا فشيئا ، ودون أن يشعر ، اندمج فى حياته الشخصية ونسى الهموم التى يعيش فيها غيره ، وأخذت صحة الأم تسوء من حالتها النفسية حتى تخيلت أنها لا تزيد على أن تكون شمعة تضىء ظلام خرابة .

واستبد بها فقر الدم حين أجهضت جنينا . كانت تقول وهى تتناول دواء لذلك . « لماذا لا يذهب إليها ؟ .. للعاقر التى يعاشرها الخائن » .

ثم ماتت ذات ليلة ، حين كانت نوبته فى البيت الثانى ، وبات الأولاد يصرخون وحدهم ، واستدعى فى الصباح ، فبكى بإخلاص واهتز ببكائه كما تهتز شجرة الجميز ، ومشت نقود « الضرة » فى موكب الجنازة ، وجاء إلى السرادق ليلا مدير المعاشات .

ثم قامت بهية مقام أمها ولو أنها مازالت صبية . لكن عويس افندى بعد أن صار زوجا لامرأة واحدة أحس أنه لا يستطيع الاستغناء عنها .

وبدأت التوافه التى كانت تمنح له تختفى من الأفق ، وكان يرضى ، وبدأ السخط ينمو فى القلوب الغضة فى البيت القديم الذى

ينفق فيه الابن الأكبر كل دخله وترعاه البنت الكبرى بكل قوتها .

ثم تغير كل شيء بسرعة كما تتغير الحقول قبيل الحصاد :

أحست الزوجة ـــ التي لم تمت بعد ـــ أنها غير محتاجة إلى عويس ، فغاضبته لأنها هي التي تزوجته وألغت بوليصة التأمين ، وقررت السفر فورا إلى الريف لأنها لم تعد محتاجة إلى شيء ... إلا الهواء الطلق كما قال الأطباء .

وكان نظره الساهم وهو في هذه المشاكل ؛ أشبه بمنظر الثور الموحول حتى ركبتيه . في الطين ، ويجتر .

قال في نفسه وهو راجع إلى البيت الذي لم تعد فيه الزوجة القديمة :

« وكنت سعيدا قبل أن أعرف الثانية . لكن المصيبة أنني كنت لا أشعر ... آه ... السعادة والصحة لا نحس بهما ونحن فيهما . أيتها الوفية ! أين أنت ؟ وأعلن لأبنائه أنه سيقيم معهم . فجاءصوت الولد الكبير :

ـــ مرحبا ياأبي ، هل فسدت الأمور هناك ؟

فأطرق ولم يرد . وقالت بهية :

ـــ المرأة التي قتلت أمي .

فأطرق ولم يرد .

فقال صوت غلام :

ـــمن زمان يا بابا .

قال صغير :

ـــ سعيد بيجيب لنا عنب .

وصغير آخر :

ـــ وشيكولاته كمان .

وكان الأب مطرقا ضخما متجهما بليدا كأنه برج ، لكنه أدرك أنه على وشك أن يفقد كل شيء . وتخيل زوجته القديمة في المطبخ هناك تغسل أو تطبخ أو تنظف المواعين ، وأنها ستدخل عليه بعودها الأعجف ووجهها الفقير من الدم ، وظلل المجموع صوت سعيد وهو يأمر إخوته :

ـــ هس ، بس ، عيب ، هل تتعشى يابابا ؟

ـــ لا .. شبعان .

وكان صوته كسيرا ، وانزوى لينام كأنه غريب سيسافر فى قطار الفجر .

الساكنة الجديدة

فى حارة ضيقة مفتوحة الطرفين ، متعرجة طويلة ، موازية لشارع الخليج بالقاهرة ، تضاء بالليل ... ذات طابع خاص ، أهم ما فيه الهدوء والنظافة ... فى هذه الحارة يقع مسكن السيدة جمالات .

ألذ ما فى المسكن أنه غير مكشوف على الرغم من أنه واقع فى الدور الأرضى ؛ ففى الجهة المقابلة لهذا البيت ولعدة بيوت عن يمينه وشماله يقع سور المطحن الكبير ،الذى يغلب على الظن أنه أول بناء نهض فى هذه البقعة ، وبمرور الزمن عام بعد عام ، قامت حوله المساكن فظهر بين البيوت كأنه أبوها .

ومن حديد الشباك المطروق على هيئة أشكال هندسية ، تسرب نظر الساكنة الجديدة للمرة الأولى ، فاخترقت الحارة ذات الأرض المكنوسة والعرض الضيق حتى التقت بسور المطحن ، ثم توقفت فى فتور شارد .

كان هناك على السور القديم المبنى على نسق واحد صور من إعلانات شتى وكتابات مختلفة .

« فريق المحروسة لكرة القدم » ، « مطبعة الفنون الجديدة » ، « حنفى جدع » ، « نبيل حمار » ، وإعلانات سينما ، وإعلان عن الأسبرين ، وبعد هذا كله إعلان أخير ، كتب

بالحبر الكوبيا على الجدار بلا ورق ، ووقع تجاه منزل السيدة فقرأته .. ووقفت عنده . وسكتت نظراتها فى فتور شارد ، وكان هذا الاعلان هو : « زيت الحلبة يفيد الأم المرضعة » .

ولطمتها كلمة « الأم» حتى رأت أثر اللطمة فى مرآة مواجهة ، وكأن حمرة ضرجت خديها حين ذكرت الماضى .

لم تنجح فى أن تكون أما ، وهذا هو بدء قصتها .

وهى تدعى بالساكنة الجديدة دائما ؛ لأنها تغير مسكنها كل بضعة شهور .

وعلى كل حال فقد كانت فى هذه الحارة تدعى جمالات ، ويعلم الناس أنها أرملة لا تخرج من شقتها الصغيرة إلا فى ثياب الحداد ، ولم تنجب مع الأسف من زوجها الذى مات عنها ، ولم يترك لها — مع الأسف أيضا — مالا سهلا — بل ترك لها عدة أفدنة أكل أقاربه ريعها لأنها غريبة عنهم . ومنذ ثلاث سنوات ، والأرملة المسكينة تجرب معهم كل أساليب التعامل وقد أخفقت فيها جميعا — مع الأسف أيضا — فلا لين ولا صعوبة : ولا عرف ولا قانون ، أجدى فتيلا مع هؤلاء الناس .

وقد تغيب عن مسكنها ليالى ؛ لأنها تسافر إلى القرية لتعود بشىء من الريع ، وقد تعود دامعة العينين ، على وجهها أمارات السهر والجهد الشديد ، وهى مع ذلك خالية الوفاض من كل شىء حتى من المصاريف .

ورق لها قلب صاحب المنزل تاجر الأثاث ، فلفت نظرها إلى أنه لا يهمه مطلقا أن تدفع الإيجار فى مواعيده ، بل لها مطلق

الحرية فى أن تدفع عند اليسار ما تقدر عليه يدها .

والسيدة جمالات ذات وجه معبر ؛ لم تستطع سن الخامسة والأربعين أن تهزم فيه لمسات الحسن ، خصوصا فى الخدين ، حول الأنف من الجنبين وعلى الجبين الناصع تحت الطرحة السوداء ، استثن منطقة واحدة تقهقر فيها الحسن بسهولة ، هى ما تحت العينين حيث ظهرت آثار سمجة ، كأنها وقع أقدام الليالى على خدود الناس . تجاعيد صغيرة ولكنها مخيفة .

والساكنة الجديدة ، أو السيدة جمالات حسنة السيرة ، لا يطرق بابها إلا ناس قلائل ، يغلب أن يكونوا من مستأجرى الأرض أو رسل سلام يحاولون أن يتوسطوا فى الاشكال القائم بينها وبين الذين وضعوا يدهم على الأفدنة .

هذه هى الحقائق التى عرفها كل شخص رأى الساكنة أنه لا مفر من أن يعرف عنها شيئا . وهناك حقائق أخرى كانت جمالات تعرفها وحدها ، وقد بدأت تزعجها بعد أن استقرت فى هذا المسكن واستعادت قصة فشلها السريع فى حياتها الزوجية ، يوم أن أمسك بذراعها الرجل الأول ونزعها من بيت أمها ؛ لأنها كانت يتيمة ، ولما لم تحفظ عهده ولم تصن أمانته فزلت قدمها ... افترقا .

وحاولت أن تتوقف ولكن عبثا . الرجل الثانى — ولم يكن زوجا — لم يكن شهما وليس هذا غريبا ، إنما الغريب أن يكون شهما . تركها وفر ، وجرت خلفه تطارده ، والتقيا على غير حب ،

وسألته طويلا :

« أين الحب ؟ » فنكل عن الجواب ، وفر ثانيا . فعلمت أن المطاردة عمل غير منتج ، فبحثت عن جديد .

وأحست بعد فترة من الزمن بما يحس به الطفل الذى يشعل أعوادا من الكبريت فى كومة من الحطب . أحست أنها أمام حريق لم تكن ضخامته تخطر على بالها ولا تتواءم مع خيالها ، فوقفت مبهورة وتركت النار ترعى .

وهذا ما يفعله الناس إزاء أخطائهم الكبرى . نفس العمل الذى يقترفه الطفل حين يشعل الكبريت وكثيرا ما ينشقون على أنفسهم وينحون عليها بالملامة . كل هذا وهم سائرون فى طريق الخطأ .

والساكنة الجديدة تأكل من ثمرات الصداقة ومكسب الحب .

هكذا شاءت لها الظروف .. ونحو هذا قادها القدر .

بيد أنها اليوم بدأت تفكر فى النهاية ، ووجدت نفسها تهتف : « النهاية النهاية . ترى ما لونها ؟ » .

وكانت عيناها فى هذه اللحظة واقفتين على قمة السور ، تتأملان غرابا ينظر إلى النخلة الوحيدة القائمة فى فناء المطحن . وطار الغراب فوقع على نخلة ، وطار بصرها فوقع على المدخنة العالية الذاهبة فى الفضاء كأنها مسلة فرعون . وكان ضميرها لا يزال يسأل عن « النهاية . النهاية » .

وعلى قمة المدخنة عثرت بالجواب : إنها سوداء .

وسالت من عينيها دمعة من تلك التى تسيلها الحقائق .

وقامت فدخلت الحمام كأنما لتغسل همومها ، ثم عادت فلبست ثوبا آخر ، ووضعت على التجاعيد تحت عينيها شيئا .

وحين هبط المساء هبط على الحارة سكون شديد ، وكانت المصابيح المتباعدة ترسل أشعتها برفق ، وقامت النخلة والمدخنة فى الظلام وراء السور ، وكانت نظرات الساكنة الجديدة تحلق حول ذوائبها .

وسمعت فى السكون وقع حذاء ثقيل وخطوات عسكرية تقترب من منطقة البيت ، ثم تتحرك فى تحير . وتوقفت الخطوة عند الباب الخارجى برهة ، تخيلت فيها صاحب هذه الأقدام مشرئبا بعنقه يقرأ نمرة البيت .

وصح تخمينها لأنها سمعت الأقدام تهبط العتبة المنخفضة للباب الخارجى وتدخل الحوش ، وعلى بعد مترين اثنين إلى اليمين توقف الداخل ونقر بابها .

همست وهى تسترد نظراتها من الخارج : يارب يكون هو .. ولا أحد غيره .

ثم سألت بصوت ضئيل خرج من وراء المصراع :

ــ من ؟

ــ أنا .

ــ بديع ؟

ــ أيوه .

ــ أهلا بحضرة الكونستابل . ادخل . هل عرفت المسكن بسهولة ؟

فأجابها ضاحكا بنزق الشباب :

ـــ بنفس السهولة التي تعرفت بها عليك .

ـــ أواه ياحبيبي ... كثيرا ما تكون قاسي الكلمات .

وكان في قولها« حبيبي » تجوز كثير وتسامح في التعبير . فالحقيقة السافرة التي تنادي على نفسها هي أنه « ابنها » فهو في الخامسة والعشرين وهي في الخامسة والأربعين ، وهو في شباب يحتاج إلى « صيانة » حتى مع قسوة الاستعمال ، وهي في عمر يحتاج إلى « الصيانة » حتى مع الرقة . أقدار !!

وتكلما بصوت عال فترة من الوقت عن الايجار والأرض والقضايا والمحامي والمصارف والمحضر والحجز ، ثم تكلما بعد ذلك بصوت خافت ؛ خافت جدا ، ونامت السيدة جمالات بعد أرق طويل ، ولم تستيقظ إلا في ساعة متأخرة من النهار . كان الضحى قد ارتفع ، وصوت بائع العدس والفول المدشوش يرن تحت شباكها كالجرس . وقامت غير منشرحة ولا نشطة . وذكرت « بديع » حين وقعت عيناها على تجاعيد عينيها في المرآة .

وذهبت ففتحت الشباك ، ورأت الاعلان المكتوب بالكوبيا على حجر السور عن زيت الحلبة ، فتمنت لو أنها كانت أما شحيحة اللبن تحت زوج شحيح القلب ، فقير شحيح الجيب ، فهذا كله خير من الحياة التي تحياها .

ورأت النخلة أكثر طول وهزالا من البارحة ، ففطنت إلى أن البلح قد جمع عنها في صباح اليوم ، وإلى أن بعض جريدها قد قطع ، فتخيلتها « أما » في أعقاب « الولادة » .

ومن قمة النخلة انتقلت عيناها إلى قمة المدخنة ، وكان عليها جواب سؤالها عن نهاية حياتها ، فجفلت داخلة من الشباك .

وصممت على أن تقول فى مساء هذا اليوم لبديع الكونستابل شيئا مهما لكن بديع لم يحضر ، وخرجت تتمشى فى ثياب الحداد ، ثم عادت . وفى المساء التالى سمعت الحذاء الثقيل فى سكون الحارة ، وطرق الباب ، فقالت :

ــ ادخل .

وجلس فرحا بشبابه ، وكانت هى مائلة إلى التشاؤم جانحة إلى السكوت ، فقال ضيفها فجأة :

ــ مالك ؟ .. هل هناك حب جديد ؟ !

فأمسكت دمعة ، ثم تنهدت ، وقالت :

ــ بديع . اسمع يا بنى .

ــ اسمع يا بنى ؟ !

وعاد يضحك .

فاستحلفته بكل امرأة لا يحب أن يراها فى مثل هذا الموقف أن ينصت لها . فوجم . وكان على وجهه دلائل حنان ، فقالت له :

ــ قبل أن يكشف أمرى هنا أيضا ، وقبل أن ...

وأشارت إلى التجاعيد تحت عينيها ــ تملأ الوجه كله ، أريد أى عمل .. شريف .

وأطرقت ، ولم يرد بديع . وشيئا فشيئا زال عنه الوجوم وعاد إليه النزق فانفجر يضحك حتى ضرب الأرض بقدميه ، وشرق فطلب كوبا من الماء فقامت المرأة تسقيه .

ولما ذهبت عنه النوبة أكمل السهرة ، وقالت له وهى تودعه إلى الباب :

ـــ هل من الممكن أن تذكر ما قلته لك ؟

فلم يرد .

وفى الزيارة التالية أخبرها الكونستابل أنه اهتدى إلى حل . فتهلل وجهها وسألته عن الموضوع ، فقدم إليها بطاقة تقابل بها شخصا طيبا مستقيما موظفا فى إحدى الوزارات .

وفى الصباح التالى مباشرة كانت تلقى على النخلة والمدخنة نظرة موازنة ومن قمتيهما رفعت بصرها إلى فوق .. إلى السماء ، وطلبت من الله .

وفى الملابس السوداء وقفت فى ممشى طويل تسأل عن هذا الرجل ، وأذن لها فدخلت ، فرأت نفسها أمام رجل فى الخمسين لكنه ناضر : منديل حريرى أحمر فى لون زهرة الرمان ، يطل من سترته ، وشعره الأبيض مرجل ومدهون بالزيت .

وكان الاستقبال موحيا بالكرامة والاستقامة كما وصفه الشاب .

وتذكرت النخلة والمدخنة ، فكانت تجزم بأن نهايتها ستكون خضراء ، ربما عادت الأقدار فقاتلت فى صفها .

ـــ أى عمل يا سعادة البيه .

ـــ طبعا أى عمل ضرورى . وبديع قد وصف لى أحوالك ، اتركى عنوانك قبل أن تنصرفى .

ثم انصرفت .

وانتظرت المساء بفارغ الصبر لتشكر حبيبها أو ابنها . أى لقب يرضيه ستناديه به .. لكنه لم يجىء .

وفى المساء الثانى ، لم يجىء .
وفى المساء الثالث ، لم يجىء أيضا .
ومر أسبوع فلم يأت .
وفى نهاية الأسبوع الثانى نقر الباب .
كان السكون مخيما جدا ، وفى إحدى عينيها رمد خفيف ، وفى رأسها صداع حاد ، وفى جبينها خلل ، وفى نفسها ملل .
ومن شدة شوقها لم تقل : « من » ففتحت . فإذا المنديل الأحمر الزاهى فى لون زهرة الرمان متدل من الجيب فى طراوة أذن الكلب وإذا الرجل الطيب المستقيم واقف بالباب وفى عينيه معنى عرفته .
ــ تفضل .
ــ مساء الخير . ماذا بك ؟ جئت بنفسى .
ــ مرحبا بسيدى !
ومر وقت فأفهمها أنهم فى انتظار الميزانية « وربنا يسهل » .
ــ صحيح ؟
ــ ثقى بى ألا تثقين ولو برجل واحد ؟
فلم ترد .
ونبت الحديث من جديد ، وجرى نحو الغاية المألوفة ثم انتهى .
وانقطع الكونستابل منذ ذلك التاريخ فلم تعد تسمع عنه ، واستحت أن تسأل عنه الخليفة أكثر من مرتين حين وجدت على وجهه شيئا من الضيق .

وطال الوقت ولم يحدث جديد .

اللهم إلا حادثا لم تكن تنتظره ، هو أن صاحب البيت طرق عليها الباب فى الصباح ، وقال لها بلهجة بلدية خالية من الزيف :

ـــ لنا عندك أجرة شهرين يا ستى كفاية بأه . شبعنا حنية .

وسكت ، ثم أشار بيده يتكلم وكمه الواسع يخفق كأنه يبرق :

ـــ واللا أقولك : « اتكلى على الله وعزلى » والله يسامحك فى اللى فات . عاوزين نبيض الشقة أحسن اتوسخت ، انت فاهمة ؟

فلم ترد .

وفى أول الشهر التالى كانت فى بيت جديد ، وتدعى الساكنة الجديدة ..

ولم يكن اسمها جمالات ، ولم تكن تلبس الحداد فى الحى الذى انتقلت إليه .

الطفل الكبير

حين استيقظت الأم فى الصباح الباكر كعادتها كل يوم ، لفتت نظرها رسالة اعترضت طريقها على منضدة ، قرأت فيها ويداها ترتجفان وفى عينيها بقية من النوم : « لا تنتظرينى اليوم ولا أى يوم آخر . فلن أعود . سأقتل نفسى » .

ولم يكن هذا أول حادث من نوعه من ابنها ، ولكن هذا لم يعفها من الجزع ؛ لأنه من الجائز أن يقتل نفسه ، فمعظم الذين يقتلون أنفسهم كانوا فى أول الأمر لا يقصدون ... كانوا يؤملون أن يخف إليهم من يحول بينهم وبين المنية ، وكثيرا ما يترك الواحد منهم « بابا مفتوحا » لتدخل إليه النجاة .

واندفعت إلى حجرته تفتش ، فوجدت كل شىء يحمل أثرا منه .

كان هناك عرق خفيف ترك آثارا صفراء على بياض الوسادة ، والسرير كان منخفضا من أثر الرقدة ، واللحاف مهوش لم يعدل بعد ، وعلى الأرض جورب غير نظيف . وأدوات الحلاقة هيئت ولكنها لم تستعمل ، وكل شىء يؤكد أنه ودعه للمرة الأخيرة .

كانت وحيدة فى المسكن ، فقد تزوجت خلال هذا العام آخر

بناتها ، وتذكرت فى الليلة الأولى التى خلا فيها المسكن عليها هى وابنها ، والعناية التى لقيها هذا الطفل الكبير منذ ولادته حتى هذه اللحظة . ولم يكن موت أبيه ليؤثر كثيرا على ما لقيه من رعاية ؛ لأن أمه كانت فى قوة الأقدار على اعتصار مواردها الضعيفة فى سبيل إرضاء هذا الطفل .

وأحست كأن مطرقة هوت على رأسها بعد أن قرأت هذه الرسالة .

كان خلاف شديد قد نشب بينهما منذ دخول المساء الفائت حتى وقت متأخر من الليل حول عدة مسائل : أولها رسوبه فى (الثقافة) ؛ الشهادة التى أصبحت ترتعد لسماعها اسمها فتخافها كما تخاف ضغط الدم أو الذبحة الصدرية ؛ رسب فيها وانتهى الأمر وسيكون فى العام القادم ــ إن عاش ــ من طلبة المنازل ...

وتسللت الحوادث بسرعة لأن أعصابا محمومة كانت تصاحبها ، فانتقل الحوار من المدارس إلى الملابس ، ومن الملابس إلى الأصدقاء التافهين الذين بعثروا وقته ونقوده وسيبعثرون عمره . على حد تعبير الأم .

كلهم طرداء مدارس أو على وشك أن يكونوا . آباؤهم صناع مرهقون ، أو موظفون منسيون ، أو تجار يقبلون أقدام السوق لينفقوا على أولادهم .

ثم انتقل الحوار إلى غرامياته الخيالية ، وتطلعه نحو القمر ، وحبه لفريدة بنت المستشار التى جعلت من شخصه أضحوكة بين

العشاق .

وكان ما حدث قبل أن يسدل الستار ليلة أمس ، أن شق قميصه ، وانتابه من الحزن حال يشبه الصرع ، فآوى إلى فراشه وكل شيء فيه ينتحب . وخيل إلى الأم أن حرارته ارتفعت ، فسهرت تنقل كفها من جبينه إلى قدميه حتى نام وانتظمت أنفاسه .

وعندما ينام الناس وتسكن الدنيا ، يبدو للساهر الذى يلتمس أسباب السلامة ، أن هذا السكون النائم لا يظلله اشكال ولا مأساة إلا حكايته الشخصية . فأطرقت تنظر فى كفها المعروقة وتستغفر ، معتقدة أنها لو استقامت لها حال هذا الولد لرفرف السلام على الأرض بأسرها ، ولعلها تصورت (القارات) خالية من الخصام والبراكين نائمة تحلم كما تنام الطيور .

وألقت عليه غطاء خفيفا يناسب الحر ، ثم انسحبت على أطراف أصابعها لترقد منفردة ..

* * *

« جائز جدا أن يقتل نفسه فى هذه المرة » .

هتفت بهذا فى خاطرها ولطمت خدها بيد واجدة ، ثم أسرعت ترتدى ثيابها .

إلى أين تذهب ؟

القلق لا يفكر فى المكان الذى ينبغى أن يذهب إليه . لكنه يريد أن يتحرك فحسب .. فى أى اتجاه أو فى كل اتجاه .. ولا يسكن سطح الماء والدوامات تدور فى أعماقه .

وذهبت إلى بيت أقرب بناتها منها ، وكان زوجها فى عمله

كالعادة . وحين رأت البنت أمها فى ثياب الهلع ، قالت بلهجة أسف لا تخلو من النقد :

ـــ هرب ؟ .. كالعادة .

وأحست الأم فى هذه الوهلة أنها وحيدة ، وليس هناك عزلة أشد من عزلة الرأى ، ولا انفراد أقوى من انفراد العاطفة . وشعرت فوق ذلك أنه لا معونة عند بنتها :

ـــ ماذا نعمل يا أماه ؟ . إن ابنى مصاب بنزلة معوية ، وقد خرج أبوه دون أن يأكل .

ونظرت الأم نحو كفها المعروقة .. وبنفحة من نفحات العدالة التى تهب أحيانا على قلوبنا تذكرت أن بنتها أم ، والقلوب على وجه الأرض تمشى على قانون موحد ببند واحد لا تأويل فيه ولا خلاف .

فقامت الأم الكبيرة فى صمت واجم ، وخرجت تسأل عن الطفل الكبير حتى تعبت ، فرجعت وقت الظهر والجو حار تملؤه رطوبة تخنق النفس .

وتوافد ناس يسألون ، بعد دخول المساء ، نفس الذين سألتهم الأم صباحا ، وكان الوقت يمشى ببطء ، والليل فى نظرها أشبه بزنجى يمشى وهو مقيد والغم على ملامحه الكئيبة ، وزاد يقينها أن الذين حولها لا يشاركونها إحساسها .

فصرخت فى اللائى حضرن من بناتها أن يعدن إلى بيوتهن ، فإن وجودهن لا يغير من الواقع شيئا ، أما الثالثة فإنها لم تكن تعلم .

ومضى الوقت يتلكأ حتى أوشك الليل أن ينتصف ، فدقت الباب يد خشنة غليظة جعلت قلب الأم يخفق ، فقد أيقنت أنه أحد

رجال البوليس ، ومن فتحة الباب بدا شبحان : رأت أولا وقبل كل شيء شبح ابنها ؛ وكان أصفر هزيلا ، كأنه ضرب طول اليوم ، أما الثانى فكان رجلا طويلا ضخما ، ذقنه طويل لم يحلق ، وشعره نام غير مرتب ، وهيئته تدل على أنه بائع لبن ... فى قمة الشباب ومدخل الرجولة ، وكان ممسكا بابنها كأنه خائف أن يجرى منه .

ودخلا بلا كلام ، وبدأ الغريب يقص القصة باختصار لأنه ترك دراجته فى الحارة :

« بينما كنت راجعا إلى قريتى . والطريق خال تقريبا ، فرأيت هذا الشاب وهو يهم برمى نفسه فى النيل ، فأمسكته فى اللحظة الأخيرة ، وتحايلت عليه بشتى الوسائل حتى عرفت عنوانه ثم صحبته إلى هنا » .

ولما استأذن بعد قليل صوحب بالشكر حتى الباب ، ودست الأم فى يده ورقة من فئة الخمسين قرشا ، فقبلها فى صمت ملهوف يثير الشكوك . ولو أن بعض الناس يبيعون المعروف بثمن .

* * *

وكان أسلم طريقة أن يسكنوا عن الموضوع ولو مؤقتا ، فوضعت له العشاء فى صمت ثم لاذت بحجرتها ، ورقدت تسترجع الماضى وتحسب المشاكل وتخمن المستقبل ، وتوازن بين حالتها لو أنها عاشت وحيدة منذ مات زوجها وزوجت بناتها ، وبين عيشتها مع هذا الطفل الكبير .

ورأت الصفقة خاسرة فقد جعلها أحدوثة . وأحست بثقل النوم وأحست بثقل آخر يمشى فى صدرها ، وتعاون الاثنان معا فدخلت

فى شبه غيبوبة . وكانت أحلامها طول ليلها لا تخرج عن أن ترى مصباحا يطفئه الهواء ، أو نفسها وهى تسقط فى جوف مدخنة ، أو بالة من القطن على رأسها من إحدى عربات النقل فى الجمرك .

ولما استيقظت علمت أنها لم تكن تحلم ، وأن الذبحة الصدرية التى حذرها منها الطبيب أمسكت بخناقها ولن تدعها تفلت ، فرقدت فى فراشها أيامها الأخيرة .

* * *

وحين خلا البيت على الطفل الكبير — بخروج الأم منه إلى الأبد ، وبعودة الأخوات فى الثياب السود إلى أزواجهن — لقى الابن للمرة الأولى بنفسه وجها لوجه ، فتذكر أشياء كثيرة :

قدرة أمه على اعتصار الموارد الضعيفة ؛ كانت رحمها الله كالبقرة العجفاء التى تجلد فتدر وهى تلهث . وذكر طريق الحياة الذى لم يخط فيه خطوة واحدة ، وحوادث الانتحار التى كان يدبرها حتى يصل إلى مآربه ، والحادثة الأخيرة من هذا النوع التى اكترى فيها رجلا ليشهد زورا ، ووقوفه فاشلا على جانب الطريق حزينا سادرا عاجز الحيلة والناس سائرون لا يلتفتون إليه .

تمنى بينه وبين نفسه أن لو قدر له أن يأخذ أى مسألة مأخذ الجد . لم يكن مهما أن يعين مسألة بالذات ، بل المهم هو أن يوفق فى عمل شىء بحزم ويقين ، حتى ولو كان هذا الشىء « انتحارا » .

ولم يطاوله الزمن كثيرا فكشف له عن عجزه ومساوىء نفسه بصورة مختصرة ، غاية فى الوضوح ؛ كأنه يقرأ عليه « تقريرا » حتى اقتنع الطفل الكبير بأنه فاشل ، وسأل نفسه عن معنى الفشل

فأدرك بعد جهد يسير أنه ليس الخلو من المزايا فحسب ، بل هو مصادرة المزايا كذلك .

وحين أقفل باب المسكن الخالى بعد ارتفاع الضحا كان لا يعلم إلى أين هو ذاهب ، لكنه كان واثقا أنه لن يعود إلى الأبد كما خرجت أمه من قبل فجأة وبدون إنذار . دمعت عيناه لأنه لم يجد من يرثى لمصابه . وكاد هذا الخاطر يكون دافعا ومانعا بالنسبة إلى الانتحار .. حتى إذا ما استقبل الفضاء خارج المدينة سار يخبط على غير هدى ، وعاونه السكون على أن يدرى أن شبابه فارغ وخير له وللناس أن يموت . وحين يلتقى بأمه مرة أخرى سيعترف لهذه المرأة التى عناها أن وعدها قد تحقق ، وأنه التقى بالمصير القاتم . وتحت شجرة توت منفردة كثيفة الظل وقف مقتنعا . هذه خير بقعة يشنق فيها المرء نفسه . واختار الشنق بالذات لأنه لم يفكر فى المرات السابقة .

وكانت الحقول خالية إلا من شبحين بعيدين لن يصلا إليه . وقطعة حبل قصيرة ملقاة تحت الشجرة هى التى أوحت إليه بهذا الخاطر . وهى على قصرها قادرة على استلال أضخم روح .

والتقطها بسرعة كما جرع صبغة اليود ذات مساء وأمه موجودة ، ثم تسلق الشجرة ...

وكانت الغصون مورقة عليها من الربيع رداء لا يخلع . فهبت عليه نسمة أكثر طراوة فملأ صدره منها . وظل الحبل بين يديه وهو جالس مستسلما لأفكار كانت فى غدوها ورواحها مثل أمواج البحر ترف فى كل اتجاه .

ولجأت إلى ظل الشجرة ـــ فجأة ـــ قافلة عجيبة ، كل شيء فيها هزيل أعجف ، كأنها بقية جيش مهزوم .

امرأة ورجل وبقرة وثور كانوا يعملون في الحقل . فجاءوا ليأكلوا ويرتاحوا . وأشرف وهو في مرتفعه على هذه المخلوقات ...

أخذت الحيوانات المرهقة تأكل علفها والزبد يسيل من أشداقها في الوقت الذى جفف فيه الزوجان عرقهما وبدآ يأكلان . كان الطعام بسيطا من الذى يحمل عادة إلى الحقول ، لكن الجوع والجهد ووجه المرأة الصبوح كان يضفى على الوجبة لذة غريبة . وكان الزوجان فى سن الشباب يتحدثان وهما يأكلان ، وكثيرا ما كان يتكلم الرجل وفمه مملوء بالطعام فيكمل العبارة بإشارة . وأحيانا كان يتجشأ ، وأحيانا كان يقبل امرأته ، وهذه الحركات يراها الجالس فوقهما فى صمت ، فيتقلقل جوفه من الضحك ..

ولما انتهيا من الطعام صمتا قليلا ، ونظرا فى اتجاهات مختلفة ، إلا إلى فوق ، والتهم كل منهما وجه رفيقه بنظرة حية ، فى الوقت الذى هبت فيه نسمة طرية جعلتهما يستلقيان جنبا إلى جنب . وسحبا عليهما غطاء من القطن وتلاءما ... ثم ... ناما ...

قال وهو لا يزال على الشجرة كأنه غراب لا ينعق : وبعد الراحة اللذيذة يستأنف العمل الشاق . وبعد العمل الشاق جوع قوى وأكل شهي ولو كان ترابا .

سكت ثم استطرد يخاطب نفسه : وهما يعملان لغاية مشتركة .

هذا هو الوجود الحقيقى . الوجود الحقيقى فى « الحب والعمل » .

ورقدت البقرة والثور واقف يجتر . وعضها من ظهرها ثم رقد إلى جانبها ، وظلل صمت الراحة على القافلة المجهدة . وسيطر السكون على المزارع فلم ير وهو مكانه إلا عيونا أخذها النوم .. حتى النبات .

وخشخشت الأوراق بنسمة طرية . وفجأة سقط الحبل من بين كفيه حتى كاد يقع على وجوه النائمين ، ولم يفلح صوت السقطة فى إيقاظ أحد .

وكان حتما أنهم سينهضون بعد قليل حينما تخف الحرارة شيئا ما ، ليستأنفوا العمل نحو الغاية التى كانت هدفهم وقت الصباح . فتسلل نازلا فى صمت ، حتى إذا ما وصل إلى الأرض ألقى على المكان نظرة شاملة . وكان يبتسم .

واتجه نحو المدينة فى ذهنه أمران : أن يشغل مكانه على الأرض فيعمل أى عمل . وأن يفتش فى غير رعونة عن القلب الذى يخلص له .

أما فريدة بنت المستشار التى كانت تريد منه أن يعزف تحت نافذتها لحنا ، فقد كان شبحها يغيب فى الضباب .. قليلا .. قليلا ..

زيارة في الظلام

بعد أن استقر الحاج محمود فى الفيلا الجديدة التى اشتراها لسكنه ، وأخذت يد النعيم تمسح على رأس هذه الأسرة ، بدأ الحاج محمود وزوجته يفكران فى مشكلة كبيرة ...

وكان ذلك فى إحدى الأمسيات بعد أن هجع الأبناء وأوى الخدم إلى غرفهم ، والحاج محمود فى بيجاما من الحرير لا تتناسب مع مظاهر الخشونة التى عجزت النعمة عن مسح آثارها الأصيلة ، والحاجة سكينة فى قميص نوم أبيض ، والغرفة جديدة الفراش كأنها زينت لعروس .

وحين رقد الزوجان جنبا إلى جنب كان فى رأسهما فكرة مشتركة ، لمعت فى عيون ينظر بعضها فى عمق بعض ، وتنهدت سكينة وهى تسحب اللحاف على كتفها ، وقالت لزوجها :

ــ هناك حاجات لا تزال تنقصنا يا حاج محمود ...

فسألها فى تشكك الخائف وقدرة الغنى :

ــ حاجات لا تزال تنقصنا ؟ .. هل من الممكن أن تشتريها بالمال ؟

كل الأشياء التى تعرض للبيع رخيصة ، ما دام المشترى محتاجا إليها ، وما دام يملك ثمنها .

فردت عليه فى شرود :

ـــ هذا صحيح ، ولكن .. هناك أشياء لا تشترى بالمال .

ـــ هذه إذن هى الأشياء الغالية .. وأنا لا أفهم ما تقصدين !!

ـــ أقصد أن أقول : لو أن أولادنا كانوا مثل أولاد المهندس شكرى افندى ، إذن لتمت سعادتنا .. آه ..

وتنهدت ، وسكتت ، وظل الحاج محمود صامتا ينتظر بقية القصة . حتى قالت زوجته :

ـــ لو رأيتهم اليوم يا حاج . إن ابنه عادل فى مثل سن ابننا عادل ، لكنك لو رأيتهما وهما يلعبان معا فى الجنينة ، ساعة كانت زوجة المهندس فى زيارتنا ..

فسألها وهو يحس بما تجيش به نفسها :

ـــ وماذا كان هناك يا سكينة ؟

ـــ سأقول لك على شرط ألا تغضب مما أقول .

ـــ نحن متفقان .. قولى .

ـــ كان كل شىء فى ابنهم يدل على أنه ابن مهندس ، وكان كل شىء فى ابننا يدل على أنه ابن نجار .

فقهقه الحاج محمود كأنه سمع نكتة جديدة : لكنه فى الواقع أحس بوخز شديد ، ثم سألها :

ـــ وكيف كان ذلك ؟!

ـــ ذلك ما لا أعلمه . لا أدرى !! حاجات يفهمها الناس

ولكنهم لا يستطيعون أن يصفوها ، غير أني أستطيع أن أسألك : لماذا لم تطرد سائق السيارة مع أنه سليط اللسان ؟ ألم تقل لي أنه على الرغم من طول لسانه رجل خفيف الظل ، فهمني إذن ما معنى خفة الظل ؟

ــ لا أستطيع .

ــ وأنا أيضا لا أستطيع ، كان ابن شكرى أفندى يثير أحزانى وهو يلعب مع ابننا ، اللطافة تلعب مع الخيبة ، والنصاحة تلعب مع الغشم . وكان ما يلبسه ابن المهندس رخيص مهندم ، وكل ما يلبسه ابننا ثمين مهدول . وابن المهندس يعرف كل ما حوله حتى أسماء الأزهار المغروسة فى جنينة النجار ، أما ابننا فهو يمثل الجهالة ؛ سقط من على الدراجة عشر مرات بأردافه الثقيلة وذراعيه اللتين كأنهما وضعتا فى قيد ، ولم يسخر منه الولد الثانى بل كان يرشده بأدب . يا سماء احفظى ويا أرض صونى ، لقد كان ناعما كالغريِّبة يا حاج محمود ... أما ابننا .

***

وسكتت ولم تكمل ، وسكت ولم يرد ، وخيم الصمت على حجرة النوم ، وقامت الحاجة وأسدلت ستارا على النافذة ، وأنت مرتين أو ثلاثا وهى ترفع جسمها إلى السرير ، أما الرجل فقد كان واضعا كفه على جبينه ، ولا يزال يناقش فكرة معينة ، لأن

الاحساسات التى وصفتها له زوجته لم تكن جديدة عليه . كان يحسها قبلها بزمن طويل وقد بلبلت فكره وأقلقت نفسه قبل أن تصل الحاجة سكينة القاعدة فى البيت المتسلطة على الخدم . أما هو فإنه يعيش فى الخارج ويمشى فى الأسواق ، ويحاول أن يطير بالأجنحة الذهبية التى صنعها له المال يحلق فى مستوى طبقة أخرى ... ولكنه ... عاجز .

الحاج محمود يركب السيارة ، ولكنه يشعر كأن المنادى فى الشوارع والميادين لا يبذل له من الاحترام بقدر ما يبذل للطبيب أو المهندس أو وكيل الشركة ، « ودعك من الحقائق فحقائقنا كامنة فى نفوسنا » مع أن الحاج محمود يصرف فى أول كل شهر مرتبات لموظفيه وعماله لا تقل عن ألف من الجنيهات .

إنه منذ سبع سنوات يملك آلات ضخمة فى ورشة النجارة الكبرى ، وكثير من العمال يقولون له يا عمى ، وكثير من الأهالى يلقبونه بالبيه ؛ عدة ألقاب واحترام من كل نوع وعز ونعمة ، يتضاءل أمامها دخل الطبيب والمهندس والمدرس ، لكن الحاج خاوى النفس غير مطمئن إلى منزلته ، يحس كأن شيئا ضخما ينقص النعمة الضخمة .

كان لا يزال يمسح جبينه ، والزوجة تنظر إليه فى سكون وهى تغالب النوم ورعشة من رعشات التثاؤب تهز شفتيها ، وأخيرا سمعها تقول :

ـــ إلى أين ذهبت ؟ ... هل وصلت إلى قرار ؟

فرد بعد صمت قصير :

ــ فيما يتعلق بالأولاد ... فإن عندى فكرة ، لكنى أخاف أن أعرضها عليك .

ــ لا تخف .

ــ وقبل أن أعرضها عليك ، يجب أن أنبهك إلى أن أولادنا لا يتناسبون فى تربيتنا مع ثروتنا الحالية ، لا تفكرى فى ابننا الكبير . فقد فاتته الفرصة وانتهى أمره ، ولكن الصغار منهم يجب أن نعمل من أجلهم شيئا .

ــ طبعا !!

ــ ما رأيك إذن فى أن نستعين بإحدى المربيات فى الإشراف على الأولاد الصغار ؟

ولم يدعها ترد . ولم ينظر إلى وجهها ، بل استطرد وكأنه يفر من الإجابة :

ــ أنا وأنت الآن « مودة » قديمة . قديمة تماما . ولت أيامنا كما ولت أيام « سوارس » ، وذهبت حلاوتنا مع البرقع والبيشة ، يا حاجة خلاص ، وأصبحنا نعيش فى زمن وجهه مكشوف ، فلا تعارضي إذن فى الاستعانة بالمربية .

ولما نظر إليها ضبط فى عينيها خوفا من المستقبل .

إن الحاجة سكينة كانت أشبه بالثوب الوحيد يقتنيه رجل مولع بالنظافة . فهو يلبسه ويغسله وينشره ثم يرجع به ثانيا من أول الدائرة ، حتى تقطعت الأزرار وتشرمت العرا ، ورق فى أماكن مختلفة وتطلب الترقيع ، عشرة أبطن خلفتها الحاجة ، منها ما قبل الحرب أيام الفقر والفاقة ، ومنها ما بعد الحرب أيام العز والنغنغة ، ولولا

الموت الذى يخفف الحقول البشرية لكان للحاجة عشرة من الأولاد بنين وبنات .

وحين راودت فكرة المربية رأس الزوج ، لم تكن الزوجة تخشى من شيء إلا أن تنقلب المربية بعد مرور الزمن ضرة أو خليلة . والضرة تبسط على البيوت نفوذا علنيا قد يكون أقل متاعب وعناء من النفوذ المستور الذى يتسلل إلى البيوت من فعل الخليلات ، لكن الحاج محمود أكد لزوجته أن زمن الهوى قد مضى ، قال لها هذا ، وهو يخلع عن إبهام يده اليمنى إصبعا من الكاوتش ، يظن من رآه للمرة الأولى أن تحته جرحا يخشى عليه من التلوث ، لكنه فى الحقيقة كان يستر تشويها فى أعلى الإبهام ، أصاب يد الحاج من إحدى آلات النجارة قبل أن تقوم الحرب ، وقبل أن يحج .

ثم نظر الزوجان بعضهما إلى بعض فى اقتناع هادىء قبل أن يقول كل منهما لصاحبه « تصبح على خير » .

وجاءت المربية ...

وكانت تبدو على وجهها الأسمر سطور مطموسة من قصة حياتها . كانت على عكس الأسرة التى ستعمل عندها تماما ؛ لأن على وجهها آثار عز قديم ، وقصت المرأة طرفا من ماضيها على ربة البيت : ليكون الماضى شفيعا للحاضر ، وهو ماض نظيف ناصع . ملخصه : أنها كانت زوجة ، فرقت قلة الأولاد بينها وبين زوجها لأنها لم تنجب له ، وعادت إلى بيت أسرتها . وطال مقامها فى البيت ، ولما فرقت الأيام بسرعة بين أفراد الأسرة بالزواج والموت ، عضتها الحاجة ، فلم تجد بدأ من أن تحترف هذا العمل

الشريف .

وأطرقت السمراء فى أسى وصمت ، كأنها تسترجع الماضى جزءا جزءا ، أو تتعجب من أن رزقها سيأتى من تربية الصغار الذين كانوا سببا أساسيا فى حرمانها من الحياة الزوجية .

وتنهدت ربة البيت وحوقلت حين سمعت حكاية المربيـة ، وقصتها فى الليل على زوجها الحاج محمود حين رقد إلى جانبها ، وسكت النجار يستعيد ما سمع ، وتصور ملامحها الدقيقة وعودها الضئيل ووجهها الوادع وكيف يتعذب كل هؤلاء بفعل الحاجة ، وتقلبات الزمان ، ثم تنهد ، وحوقل واستغفر الله ، ونام .

وتغيرت أحوال الحاج محمود بعد بضعة أشهر من حلول المربية فى البيت . وكان تغيرا داخليا بحتا لا يتيح لأحد أن يكتشفه ، غايته أن الرجل كان يتلذذ حين يراها ، وكان يخيل إليه على كبر سنه أنه يستطيع أن يصنع فى هذا العود المحدود أشياء خارقة ؛ من الممكن أن يضعها فى جيبه أو أن يشربها فى الماء ، أو أن يحملها بين ذراعيه كما تحمل الدمية ، ولعل موطن الإثارة بالنسبة إلى الحاج محمود كان كامنا تحت حزام المريلة البيضاء ، من امرأة لم تنـجب ولا بطنا ، ولم تعان عملية الغسل والتنشير مثل زوجته العتيقة .

وفى ظلمة كل ليلة كانت هذه الأفكار تتجسم أمام بصيرته عالية ضخمة كما يبدو الهرم على الأفق ، وينسى فى النهار بعض الشىء حين يغرق فى العمل ويشغله الصادر والوارد .

وظل كذلك حتى لقيها على انفراد عصر يوم من الأيام ، فى أحد أركان الجنينة وكان الطفلان الصغيران يلعبان على بعد قريب .

وبرقت عينا الحاج بريقا فهمت المربية معناه ، فأطرقت وهى تبتسم ، ودنا منها وسألها عن الصحة ، وشكرها على عنايتها بأبنائه ، ثم استطرد يسأل عن مسائل أخرى :

ـــ كل شىء فى منزلنا مريح . فأرجو أن تكونى راضية .

ـــ الحمد لله .

ـــ وأعتقد أن فراش حجرتك فى حالة جيدة ... وإذا رغبت فى تغيير بعض الفراش ، فأنا على استعداد .

فأجابت وقد فهمت ما وراء الكلمات :

ـــ ليس هناك داع يا سعادة البيه .

وانقطع حبل الحديث فجأة ، لأن الحاجة سكينة ظهرت وهى تتهادى فى طريقها إليهم ! سائرة كأنها بطة وفى يدها وردة تقربها من أنفها . وتحدث الحاج محمود مستطردا حتى لا يثير الشكوك فقال : « إن مربية أطفالنا سردت علىَّ أسماء كل هذه الأزهار ، كأنها التى غرستها » ثم أمسك بذراع زوجته وأخذا يجولان فى الحديقة .

ولم ينم الرجل فى الليلة التالية . سمع دقة الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، فقام متسللا من الفراش وخرج . لم يكن يدرى إلى أين يذهب . لكنه نزل إلى الحديقة دون وعى ، وعند الجناح الصغير المنعزل تنام المربية ، وقف منزويا يفكر فيما سيفعل . وقرر أن يتقدم ويطرق عليها الباب برفق ، وأن يقول لها حين تفتح له ، كلمة من كلمتين ، أو يقول الكلمتين معا : « أحبك أتزوجك » ولكن لماذا اختار هذه الساعة من الزمن ؟ إنها تثير الشكوك .

وأحس خوفا شديدا ولو أن زوجته غائبة عن البيت فى عرس ابن أختها ، وأحس خجلا من أن يراه أحد من الخدم .

أز النسيم فى ذوائب شجرة ، وفرت نجمة إلى مغربها أمام عينيه فى السماء الصافية ، وخفق قلبه وهو لا يزال يفكر .

لقد نسى أن عصر الإقدام قد اختفى منه بعد أن بلغ هذه السن ، وخبت الحرارة التى تدفع الناس إلى الأمام كما تدفع الريح شراع السفينة ، لكنه كان يحسها فى داخله على الرغم من كل شىء .

وهم أن يرجع ، غير أنه توقف ، كأنما عز عليه أن يضيع المجهود الذى بذله ، ورأى النور يلمع فجأة من وراء الشيش فى حجرة المربية ، فأدرك أنها يقظة وأن الفرصة سانحة ، وطرقة واحدة على الباب فيفتح،وحين تراه ، سيعلم كل مافى سريرتها ، ونظراتها أول أمس حين كانا فى الجنينة كانت لا تخلو من الليونة . آه .. من الممكن أن يصنع الرجل أشياء خارقة مع هذا الجسم الضئيل ...

وتوقفت أفكاره كأنها قناة تجمد ماؤها ، وأز الهواء فى ذوائب شجرة وفرت نجمة أخرى إلى مغربها أمام عينيه ، وتنهد ، فأحس حرارة أنفاسه ، ثم أفاق على فتحة الباب وخروج شبح يتسلل فى رفق وارتد الباب من خلفه وانطفأ النور ، وعادت ذوائب الشجرة تهتز ، وعاد قلب الحاج إلى الخفقان .

كان يعرف من هذا الذى خرج يتسلل من حجرة المربية ،

لكنه لا يستطيع أن يتقدم إليه ويسأله من أين جئت ؟! وظل جامدا حيث وقف ، حتى تأكد من أن ابنه قد وصل إلى فراشه ، وسار بدوره إلى حيث نام ، ولما وصل إلى السرير الخالى من الحاجة سكينة القصيرة السمينة ، انفجر يضحك ويدق كفا بكف .

وبعد أيام من عودة الحاجة ، قالت لزوجها وعلامات الكدر بادية على وجهها :

ــ يجب أن نبحث عن مربية جديدة للأطفال إذا كنا لم نشبع من طريقة تربيتهن حتى الآن .

فسألها وهو خائف :

ــ لماذا ؟

ــ لأن الذين يزورونهن فى الظلام ، يظنون أن عيون الناس لا ترى فى الليل .

فسأل وهو يبحث عن ريقه :

ــ لست فاهما شيئا !!

ــ إذن يجب أن تفهم يا غالى ، أن طفلا ثالثا قد انضم إلى طفلينا عند المربية .. لكنه فى بطنها .

ــ من قال هذا ؟!

ــ ابنك الكبير ! أخبرنى بالمصيبة منذ ساعات .

فأجاب هامسا بعد أن تذكر أين كان يقف هو من الحديقة ، وفى أى ساعة من ساعات الليل :

ــ كده ؟.. مسكين ..

ـــ مسكين ؟!

ـــ معذور .

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ لا تصرخى في وجهى هكذا ... أقول إنه معذور .

ـــ لا تصرخ أنت فى وجهى هكذا ، فإنه لا مفر ، وأعتقد أن الطفلين لم يعودا فى حاجة إليها بعد الذى حدث ، فليستقل بها إذن طفلنا الكبير .

غلبني النوم

كثيرا ما تكون آراؤنا مصدر متاعب لنا ... خصوصا إذا عارضتها رغبة تفرضها ظروف العيش ، عندئذ تنشب فى داخلنا معركة تتكافأ فيها القوى ، أعنى معركة طويلة الأمد فادحة الخسائر .

* * *

كانت سكناى وحدى تشقينى ؛ لأن تكاليف العيش كانت ثقيلة ، ومن الممكن أن تخف عنى لو أن أحدا شاركنى سكنى هذه الغرفة .

لكننى اشتريت راحة نفسى بأشياء كثيرة بعد أن أخفقت عدة مرات فى معاشرة الطلبة . ثم وجدت الوحدة خير ما يستر العورة ويطلق النفس ويحرر الفكر ، فأحببتها وركنت إليها حتى ألفتها .

أما الحجرة التى أسكنها ؛ فتقع فى نهاية الحوش ، عند مسقط النور ، فى فناء واسع مسقوف ، وايجارها معقول بالنسبة للطالب ، لأنها لا ترى الشارع . ذات شباك واحد مجاور للباب يطل على الحوش عند مسقط النور ، وفى الحجرة قضيت العام الدراسى بأكمله .

وكان البيت شديد الضوضاء فى النهار ، شديد الصمت فى الليل ، وليس هناك تناسب بين ضوضائه وصمته ، فقد كانا على

طرفى نقيض يذكرانى بصمت الناقوس وضوضائه . والسر فى هذا أن المنزل مكون من طبقتين اثنتين : فى الأولى دكاكين ومخازن ، وحجرتان فى نهاية الحوش متقابلتان تفتح نوافذهما على مسقط النور ، وفى الطبقة الثانية مدرسة أهلية تعلم الصغار حتى سن العاشرة . فإذا انتصفت الساعة الرابعة من مساء يوم هبطت على المنزل ـــ فجأة ـــ سحابة من الصمت . الصمت العميق الموحش الذى يذكرنى بصمت الناقوس .

وكان جارى رجلا فى الخمسين ، رأيته أول مرة وهو يعبر الفناء راجعا من الخارج ، وعليه جلباب من القطن سميك أزرق ، شد على وسطه حزاما من الجلد ، فأخبرتنى هيئته أنه من الحمالين .

ورأيت زوجته كثيرا .. وكان أهم ما فيها طابعها الغليظ وقبقابها الجافى ، الذى يوقظنى من النوم عند جره على بلاط الحوش فى الصباح الباكر جدا . وهى ذاهبة إلى دورة المياه إذا اقتضى الأمر . ولم تكن أما لأطفال ، وسنها قريبة من سن زوجها ، وعليها طابع أصيل من القرية لم تستطع المدينة أن تأتى عليه ...

وبعد مدخل الليل يشتد السكون فى المنزل ، فهناك عدة أمتار ، وباب « وسط » تفصلنا عن الشارع ، والدور العلوى الذى تطل شبابيكه على الحوش على هيئته مربع ينقص ضلعا ، موصد النوافذ ، مظلم نائم . والبيت الملاصق يطل علينا بظهره الطويل الأجرب ، وهو مكون من أربع طبقات . وأنا وحدى . جالس إلى منضدة منها مائدة ومنها مكتب ، يقف عليها مصباح غاز من المعدن له قاعدة أسطوانية رفيعة يثير انتباهى فى وحدتى وتفكيرى لأنه يذكرنى بأبى قردان .

والمصدر الوحيد الذى يدخل منه الصوت إلى غرفتى هو حجرة جارى .

وذلك عندما أعود فى الليل ، أو عندما يقضى سهرته فى المنزل ، فيتسلل إلى وحدتى صوت ضحكاته تظللها رائحة السمك وهو يطشطش فى المقلاة ، أو صوت شجاره إذا أنكر من صاحبته شيئا . وتتلقف مخيلتى ما يتناهى إلى من أصوات لتصبه فى القالب الذى يتناسب مع حالة نفسى وحاجتها ، ولا يخلو الأمر من سرحة قصيرة ، ثم عودة إلى الكتاب .

وتغيرت الحال ــ فجأة ــ فى غرفة جارى ؛ فأصبحت أشد صمتا وسكونا من غرفتى أنا ، وخمنت أن امرأته غائبة لأننى لم أعد أراها ، ولم يعد قبقابها الجافى يقلقنى فى الصباح . والحجرة لا يلمع فيها نور إلا إذا عاد الرجل من الخارج ، ولا يأتى منها صوت إلا إذا كان غناء أجش غليظا . من حنجرة حمال فى محطة مصر .

ولم يخل الأمر من سرحة قصيرة ، ثم عودة إلى الكتاب .

وكانت نظراتى وأنا شارد عالقة بالمصباح ، الواقف على المنضدة ، على رجل واحدة ، طويلة ، رفيعة ، كأنها رجل أبى قردان . وناقشت خلال هذه السرحة ، الفرق بين حياتين عاشهما جارى على مقربة منى : وهل يكون فى قمة السعادة عندما يوقد مصباحه بنفسه ثم يتعشى ، ثم يردد وهو يجهز الشاى « مونولوجا » لمهرج جديد ظهر أيام الحرب ، أم يكون فى قمة السعادة حين تتناهى إلى ضحكاته متظللة برائحة السمك وزوجته حاضرة ؟

سرحة ، ثم عودة إلى الكتاب ، ويصدر الحكم طبعا متناسبا مع حالة نفسى ، وحاجتها .

أما الجو الداخلى الذى أعيش فيه فى هذه الفترة ، فهو خانق جدا . كنت أعانى ضائقة مالية شديدة ، لأن أسرتى فى القرية تمر بمرحلة حاسمة فى حياتها بعد أن انفصل عنها أخى الكبير الذى كان منا بمنزلة الوالد ، فآلت الأمور إلى أخى الذى يليه تشاركه أمى . ولحقتنى فى المدينة حيث أقيم شظايا المعركة ، فضاقت على النفقة وضاقت على نفسى . ولم تعد الخطابات تجدى نفعا ونحن على أبواب الامتحان .

وكان ليل القاهرة مفزعا قلقا كئيبا ، توقظنا فيه صفارات الانذار مرتين أو ثلاثا كل ليلة ؛ لأن الألمان كانوا يدقون علينا أبواب الحدود بيد مسلحة قوية مغرورة . وكنا ننظر إلى المصير وكأنه غير مصيرنا .

ورأيت النكبة العامة — فى ليلة من الليالى — منقذا أو شبه منقذ من نكبتى الخاصة ؛ فتمنيت أن تسقط قنبلة على البيت فأرتاح .

ثم تحول بصرى فجأة من الكتاب إلى النافذة ، فأحسست أن الهواء ثقيل ، فتركت مكانى إلى حيث اتكأت على حافة الشباك ، ورأيت السماء من خلال المسقط ، ورأيت البيت المجاور الذى يطل علينا بظهره الطويل الأجرب ذاهبا إلى السماء ينظر إلى بيتنا باحتقار ، وسقطت من العلو نسمة صغيرة خفيفة كأنها حفنة ماء صبت على وجهى الحران ، ثم نظرت إلى الأمام فواجهتنى نافذة جارى .

كانت مفتوحة الشيش ، مغلقة الزجاج . يبدو النور من وراء ألواحها المطلية بالسبيداج زاهيا . وخمنت أن صاحبها لم ينم حتى هذه الساعة ، وإن لم يكن هناك حركة ولا غناء . ولم ينعكس خيال على ألواح النافذة لمدة معينة من الوقت .

وجرنى من سكونى صوت صادر من بعيد . لم يكن من الغرفة ولا من البيت المجاور بل كان من السماء . كان طلقة تردد صداها ونزل إلىَّ من المسقط ، فرجحت أنها بوادر غارة ، وأن المدفعية اشتبهت فى طائرة فأطلقت طلقة .

ونظرت إلى المصباح ثم إلى الشباك ، وقبل أن أتحول من مكانى اختلطت فى الجو طلقات المدافع بصفير الانذار تصخب كلها فى نفس واحد . وأطفأت النور لأن الشعاع كان يرتمى فى المسقط ، ورجعت إلى موقفى الأول وقد جرت فى جسمى رجفة خفيفة ، لأننى كنت أتمنى الموت منذ قليل ، واستأثر انتباهى شباك جارى الذى لم ينطفىء النور فيه ولم يتموج من خلفه خيال .

وتحرجت الحالة بعد قليل ، فخرجت إلى الحوش ووقفت فى الجزء المسقوف منه ، وكانت أصوات المواطنين تدخل من « باب الوسط » مملوءة بالخوف والتنكيت فى وقت واحد ، وأبواب المتاجر المصنوعة من الصاج تكركر أثناء جرها إلى الأرض .

وتلفت فى الظلام كأننى أبحث عن شىء ، ثم دخلت دورة المياه ، ثم قفلت راجعا إلى غرفتى ، وكان مصباح جارى لا يزال

زاهي النور ملقيا شعاعه فى فضاء المسقط ، فبدا لى أن أطرق عليه الباب ليستيقظ إن كان نائما ..

لم يكن الباب محكم الاقفال ، بل كان فى وضع يدل على أن يدا متعجلة ردته بعد الدخول أو الخروج وبعد طرقتين قويتين انفرج مصراعه المتحرك بفتحة صغيرة ، وانفلتت فجأة منه ، ومن بين رجلى قطة سوداء خرجت وهى تموء ، وانتظرت أن يجيبنى إنسان ، لكن .. لا أحد .

وبدأت حركاتي تأخذ وضعا قريبا من الأحلام حين نفذت نظراتى إلى الداخل ، فتبينت ألا أحد هناك . وخطوت خطوتين إلى الأمام ، ثم توقفت مزروعا أفحص كل ما حولى ، ولم تعد الفرقعة فى الخارج تشغلنى كثيرا كما كانت تشغلنى من قبل .

السرير ذو الملاءة المتسخة . وصوان الملابس ينعكس على مرآته المصباح المعلق . والحصير .. وقشر البطيخ الموضوع فى الحلة حتى يرمى فى الخارج ..

وعدة أطباق مقعرة منثورة فى الركن استعملت ولم تنظف .. وأشياء أخرى أهمها حزمة أشبه بالتى يحملها باعة الأقمشة المتجولون كانت مربوطة بعناية موضوعة في صدر المكان . وعلى هذه الحزمة وحدها تركز انتباهى آخر الأمر .

تذكرت ضائقتى فى الحال وأدركت أنه من الممكن أن تنفرج وبسرعة .

ودار بى المكان دورانا خفيفا ، وتأرجحت بى الأرض

كأنني واقف فى زورق بمجرد مرور هذا الخاطر . لكنني ذهبت إلى المصباح المعلق على الحائط وأدرت مفتاحه ليخفت النور ، ثم خرجت من الغرفة وأقفلت بابها خلفى ، ووقفت فى الحوش غير خاضع لفكرة واضحة .

وكانت حالة الغارة قد تحسنت قليلا ، فسكت الصخب وشمل المدينة سكون غريب يعجب له الانسان ... فكيف تنصت ملايين الناس هكذا ؟

واختنق الحوش بسكون أشد وأغرب ، سمعت فيه خفقات قلبى حين تذكرت قصة « الدجاجة السوداء » التى سمعتهامن أمى فى القرية . ودخلت إلى غرفتى من فورى ، وهناك عاودتنى التفاصيل ، وكأن أمى جلست إلىَّ تحكيها :

« سرقت امرأة دجاجة جارتها يا بنى » ..

« ثم استعاذت أمى بالله ، ثم عادت تقول : وكيف ننتفع بدجاج الجيران إلا إذا ذبحناه ؟ ـــ « وابتسمت ثم استعاذت بالله » ـــ وأيقنت جارتها أنها هى السارقة ، فاستحلفتها فأقسمت زورا ، وانتهى الموضوع ، وعاشت السارقة عمرا طويلا ثم مرضت مرض الموت وأهملت وجهها فلم تحففه ، حتى كثر فيه الشعر ، وقبل أن تحضرها الوفاة بساعات ، أخذ شعر وجهها يستحيل شيئا فشيئا إلى ريش أسود دقيق يشبه ريش الخوافى فى جناح الدجاجة ، فأيقن الناس أنها هى السارقة » .

وتخيلت ، وأنا فى الظلمة الخفيفة وجه أمى وهى تلوى بوزها أسفا .

وكان عقلى لا يصدق كل هذا ، لكن .. ماذا أعمل فى يقين القلب ؟ وتخيلت كأن دجاجة سوداء تنقر شيئا تحت المنضدة ، حيث تتكاثف الظلمة أشد وأكثر ، فخرجت من الحجرة ووقفت فى الحوش .

وعادت طلقات المدافع تفرقع من جديد ، وجاء صوت من الشارع يقول : « دى باينة ليلة سودة » . لكننى كنت مشغولا بالحزمة الموجودة فى غرفة جارى ، لأن الفرق بين حزمة بطاطين مسروقة من جيوش غازية وبين دجاجة تملكها امرأة ، عظيم جدا .

واستحضرت شخصية مدرس الأخلاق فى مدرستنا ، وتخيلته يناقش الموضوع فى الفصل . فقال كلاما كثيرا حفظت منه شيئا ، وغابت عنى منه أشياء ، كل هذا فى خيالى .

لكن الشيء الواضح المهم هو أن نعرف أين الملكية الشرعية لحزمة البطاطين هذه . لقد سلمها لص إلى لص حتى وصلت إلى الحمال . جارى . وحتى مخازن الدولة الغازية التى بعثت بها إلى مصر لا تملك هذه الحزمة . أليس من الجائز أن تكون صنعتها بأموال دولة ضعيفة كما يفعل قاطع الطريق ؟ لكن دجاجة المرأة ملكها .. وبنت دجاجة كبيرة كانت عندها .. أو لعلها اشترتها بمالها من بائع الكتاكيت .

ثم تحركت من مكانى فى الحوش . ودخلت غرفة جارى ، ووقفت مزروعا عند العتبة أنظر إلى حزمة البطاطين .

فى استطاعتى أن أعطيها لكواء الملابس فى الشارع القريب فقد رأيته يبيع أشياء كثيرة من متاع الجيوش . وهو يؤكد لكل مشتر أنه

« مش حرام » « بس ياريت .. نسرق عينيهم » .

ورأيت في مرآة الصوان خيالا .. وكان خيال لص . فخرجت من الغرفة ، ولما شممت هواء الحوش قلت لنفسي : « إن سارق اللص لا يعتبر لصا » . وتذكرت ضائقتي ، فاستطردت، وأنا أنفخ : « أوه ... بل بعض الناس لا يعتبر الجائع لصا إذا سرق المالك نفسه ... » .

عقلي يصدق وقلبي ينازع عقلي .

حتى أطلقت صفارات الأمان ...

فعاد الضجيج إلى المدينة حيا قويا كأنها آخر غارة ، ودخلت إلى غرفة جاري، فأعدت نور المصباح إلى ما كان عليه ، وخرجت سريعا لأنني سمعت وقع أقدام .

وعندما خرجت إلى الحوش لم يكن هناك أحد .. فدلفت إلى غرفتي وجلست إلى الكتاب .. لا أفهم شيئا . ثم استلقيت على فراشي بعد برهة لأستريح ؛ فقد كنت مجهدا .. فغلبني النوم .

ولم أستيقظ إلا على جر قبقاب غليظ على بلاط الحوش .

كانت الشمس على وشك الشروق حين خرجت إلى دورة المياه ، فالتقيت هناك بجاري الحمال . كان واقفا إلى حوض الغسيل مرهقا أصفر أكثر انحناء من قبل ، ولأول مرة سألته جادا عن حاله ، فقال : أنه لم يعد من المستشفى إلا بعد منتصف الليل ؛ بعد أن غسلوا له معدته لأنه أكل بطيخا « مشموما » .

ثم سكت ولم يقل شيئا ، ولم يغادر حجرته طول النهار .

وبقيت بياض النهار أفكر في الضائقة ، وما عسى أن يأتي من

رسائل من أسرة فى الريف يأكلها الخلاف .

واسترجعت أفكار الليل فألفيتها ضعيفة لا تثبت على الفحص ؛ كصورة المرأة الشوهاء حين تراها فى الصباح فتعجب كيف استهوتك بالليل ..

يخيل إلى أنى عكست ، أو لعلى مصيب ، لست أدرى !!

إن قصة الدجاجة التى أفزعتنى بالليل كانت مضحكة فى النهار ؛ لأن الفرق بين الشيئين عظيم .. عظيم ..

ودخل الليل من جديد . وكنت لا أزال مترقبا ، وقلبى ينازع عقلى وكنت آمل أن ينهزم اليقين ، لكنه كان يقاوم .

وخيم السكون وأطبق الظلام على الحوض ، ولم يوقد مصباح جارى . وكان الشيش مغلقا والباب محكم الايصاد ، وكل شيء ثابت متين يقف فى وجهى .

ومرت الفرصة التى أوقفتنى على باب التجربة ، فانكببت على الكتاب بذهن غير حاضر .

ابنتي جميلة

كنت أتمنى أن أموت قبلها ، وكانت تتمنى أن تموت قبلى .

وقد يفضل الأحباب فرقة الموت الغامضة على فراق الحياة ذى المعالم والعذاب الواضح .

لكن مناها تحققت قبلى وسبقتنى إلى العالم الآخر . هذه هى زوجتى .

أغمضت عينيها بيدى بعد أن عاشرتها عشرين عاما . ولم يكن أحدنا قد أدركته الشيخوخة حين أنهى الموت عشرتنا الطويلة ، لأن نار الحب لسعتنا فى سن مبكرة ، فتزوجتها بنت ثمانية عشر عاما وأنا ابن الواحد والعشرين . ألقى بها أبواها فى أحضانى واستراحا ، بعد أن أزعجناهما وأزعجهما الناس بقصص غرامنا التى لا تتوقف . والموت يضع نهايات محكمة لقصص الناس ، فلست أدرى كيف استطعت أن أعيش بعدها ؟!

على أنها أهدت إلىّ قبل موتها هدية جميله .. اسمها « جميلة » ؛ بنتنا الكبرى التى ورثت أسرار أمها ، خصوصا أنفها المستقيم وشعرها الحالك .

وآنستنى « جميلة » فى أول الطريق بعد أن تركتنا أمها . كنت أدخل غرفة نومى فأجد فراش زوجتى خاليا ، وأتذكر وجهها الذى لم

يفلح المرض فى تخريب محاسنه ، فيخيل الىَّ أن مكانها على المرتبة لا يزال منخفضا بعد يقظتها من النوم . فأبكى كما يبكى الطفل . عندئذ تدخل على بنيتى ، فتكفكف دموعى ودمعها مصبوب ، وتناديني أن أفيق . فأذكر بعد جهد أن الآباء يجب أن يكونوا حيث لا يرى الأبناء منهم ضعفا ولا عورة فأكتم شهقاتي وأحبس عبراتى .

والبكاء عورة ، خصوصا إذا كان على الزوجات .

احتلت جميلة فى بيتى مكانا كبيرا . والزمن الذى يجرح هو نفس الزمن الذى يأسو والحب مثل « الكيف » هذا يتحول من شخص إلى شخص ، وذلك يتحول من شيء إلى شيء . خالد خلود العواطف ، أما الناس فإنهم يموتون .

فبعد عامين اثنين أصبحت جميلة ملكة الخلية ، تأخذ منى قرطاس الفاكهة وأنا عند باب الشقة عند عودتى وقت الظهر ، وتقابلنى على السلم لتحمل عنى البطيخة الثقيلة ، وتعيد تعديل رباط عنقى فى ياقة القميص وأنا عند الباب ساعة خروجي وقت الصباح ، وتمسح بكفها على زر طربوشي ليأخذ مكانه فى اعتدال ، وقد تلحقنى بخرقة عند السلم لتلمع حذائى الجلدى ، ثم تقبل كتفى فى حنان وابتسام فتنفذ حرارة قبلتها البنوية الخالصة من صوف البدلة وقطن القميص والفانلة كذلك حتى تلمس جلدى فأنزل وقد ملأتنى السعادة .

وشغلت قلوبنا ببساطة وجمال وحنان . وحين نجتمع كلنا فى البيت فى أيام الجمع أحس بوضوح كيف ملأت هذه الفتاة قلوب

من حولها ، أناديها وحدى أو يناديها معى بنت أو ولد من أخواتها ، أو نناديها كلنا فى نفس واحد : جميلة ... جميلة ... جميلة .

وفى ليلة من الليالى رقدت أفكر ... ستخرج جميلة من هذا البيت فى يوم ما . إما قريبا وإما بعيدا .

قلت « هيه . سأبكى حتما يوم أن تخرج جميلة . وتجدد الأفراح معالم الأحزان . نعم ، سنلحظ أن مكان الأم خاو ليلة تزف بنتى إلى رجل . هيه ... وتدور الدورة من جديد وتعود الليالى الموحشة . كله بأمر الله » .

وكأنما كان هذا الخاطر وحيا إلٰهيا هبط على فى سكون الليل . فلم يمض أسبوع واحد حتى طرقت علينا الباب يد غريبة ، وكانت دهشتى عظيمة حين رأيت أحد زملائى القدماء — أيام كنت موظفا فى مركز « تلا » — يستأذن ومعه ابنه ، وحين دخلنا إلى غرفة الضيوف تذكرنا الماضى الجميل والعشرة القديمة . وبلغنى أسف زوجته على زوجتى وأمانيها السعيدة لنا فى الأيام الجديدة .

وكان على وجه ابنه أمارات من يحمل أملا ؛ هادئا وسيما يتفجر الشباب من خديه ، ولا يحمل من ملامح أبيه إلا آثارا طفيفة ..

ودخلت إلى جميلة فى المطبخ ، لندبر — معا — ما عسى أن نقدمه للضيفين ، فلاحظت أن كل شىء فيها يرتجف ، ورأيت أرنبة أنفها المستقيم . وقد هرب منها الدم .

وسقط من يدها أحد الأكواب وهى تأخذه من على الرف ،

ونظرت إليها بعينى الأب ، فأسبلت أجفانها حتى لا أرى شيئا .

وحين كان الضيف يثرثر بما يشاء ، كنت أجوس من خلال الماضى . فذكرت الحب ، والنار ، والسهر ، والسير على طريق الحياة بعينين عصبتهما يد الهوى بعصابة لا تشف ، والخيالات التى كانت ترافقنى أنا ومن أحببتها ، حتى كنا نتخيل أننا فى طريقنا إلى الفردوس .

حتى أفقت على قول الضيف : « وها هو ذا ابنى قد أصبح موظفا فى مصلحة المساحة ، ويريد .. » .

فأومأت إليه . ثم اختلينا ، وتكلمنا ، ثم طلبت منه مهلة قصيرة لا تزيد على أسبوع .

* * *

شككت كثيرا أن ميلا قديما كان يخامر قلب فتاتى نحو هذا الشاب .

وشككت مرة أخرى فيما إذا كانت العلاقة قد انقطعت بينهما .

على أن أحسن تاج تتوج به حكايات الغرام هو .. ما يصنعه « المأذون » ؛ لأنه سيضع حدا للخزعبلات العذبة وغير العذبة التى يحملها دائما تيار الحب .

قلت فى نفسى : « على بركة الله ، ولو أن الشاب ضئيل المرتب محدود المستقبل . » وتذكرت كذلك أن الله يعيد النظر فى تقسيم الأرزاق كل يوم .

وأتعبتنى مشكلة التجهيز جدا : لأن المهر كان صغيرا ، ولأن

الفتاة كانت غالية ، ولأن الزمن كان سخيفا .

كنا فى أعقاب الحرب الأخيرة التى امتصت الكماليات والضروريات على السواء . أيام كانت الأمهات يبكين بعين ويزغردن بفم وهن يجهزن البنات ــ وأنا بعد ذلك موظف ، فى إحدى المستشفيات ــ صغير ، ذو أولاد ، وقلب : وحنان ...

و « ضربت الأرض فطلعت بطيخ » و « ألححت على الثور حتى حلب » يعنى أننى صنعت المستحيل . اشتركت فى « جمعيات » من التى يعملها الناس بمبلغ شهرى ، واستدنت ، وحذفت كثيرا من مطالب الأولاد حتى جهزت شيئا معقولا لا يمكن أن تخرج به عروس .

وماتت أم « العريس » وأنا أجهز ، فحمدت الله كثيرا ، ولو أنهم سيقولون « أنه وجه العروسة » ، ولكن ذلك منحنى مهلة ... وهلة من الزمن أستطيع أن أكمل فيها ما تطلبه « جميلة » وقد كان شيئا هاما ، صغير الوزن ، كبير القيمة ، وهو الحلى الذهبية .

ثم تحولت « جميلة » إلى بيت زوجها ، كما يتحول النور من حجرة إلى حجرة وتركتنا فى ظلام .

وبعد ثلاثة أشهر تلقيت منها خطابا تقول فيه هى وزوجها ــ بفرح وسرور واعتزاز من عمل عملا عجز عنه الناس ــ إن فى بطنها جنينا ، وإن الحياة حلوة جدا ، ولا ينقصهما إلا رؤيتى . فابتسمت .

وبعد أسبوع آخر تلقيت خطابا يقول فيه زوجها : « إن جميلة مريضة ومن الخير أن أسافر فأراها ، لأنها تلح فى طلب رؤيتى » .

فبكيت .

عندما وصلت إلى بيتها فى الجيزة مساء ذلك اليوم ، كنت مقدرا شيئا خطيرا ، لذلك تنفست الصعداء حين رأيتها بعينى وكلمتها وقبلتها .

كانت صفراء عليلة غير « جميلة » التى زففتها منذ ثلاثة أشهر تقريبا ، حول عينيها هالة بنفسجية مريعة كأنها حديثة عهد بالقبر ... خارجة منه ، أو ذاهبة إليه .

وقصوا علىَّ الخبر باختصار ، ثم عادوا ففصلوه تفصيلا ، ثم رجعوا فعللوه بعدة علل منها « عيون الناس » ، ولكن السبب الحقيقى كنت أعرفه وحدى .

وضعت « جميلة » سلما خشبيا على أرض المطبخ لتصعد بواسطته إلى « المسروقة » التى كانت فوق سقفه ، والتى يخزنان فيها البصل والبطاطس وما أشبه . وتزحلق السلم لأمر يعلمه الله فهوت على الأرض ، فأسقطت الجنين وقامت منزوفة .

واستعذت بالله عشرين مرة وأنا أضع كفى على جبينها ، وكانت تحدثنى عن المسألة ببساطة وايمان جعلانى أحس بفداحة جرم الغشاشين . أما زوجها فقد رأيته يومئذ على استعداد لأن يعمل من أجلها كل شيء لكن ... كان ضعيف الجناح .

وعدت بعد فترة فوجدت الحال لم تتحسن ، فعدت منقبضا متشائما .

وبعد فترة أخرى رأيت بوادر الرجاء تمشى فى ظلمة اليأس ، فحمدت الله ، ثم تلقيت منهما خطابا يقولان فيه : « لا تتعب

نفسك بالسفر ؛ فقد أصبحت الأمور عندنا شبه طبيعية » فأقمت حيث أنا أرعى بقية « الشلة » وأرقب بفارغ الصبر خطابا يؤكد صدق الخطاب الأول .

ولم يأتنى خبر ، وسهرت أصلى ، ثم أرقت أفكر ، ثم نمت مشحونا بالوساوس ، فرأيت فى منامى كأن لصا قطع علىَّ الطريق وأخرج محفظتى من جيبى ثم أخذ منها النقود ثم لطمنى على خدى وهو يضحك .. وأخلى سبيلى بعد ذلك . هكذا بالضبط .

وأصبحت ، فقررت السفر .

وهناك رأيتها راقدة مرة أخرى منزوفة مرهقة صفراء ذاوية .

وقالت لى بسذاجة فى ايمان : « كان هذا نتيجة مجهود فى هذه المرة يا أبى ، وقد نهانى الأطباء عن الاتيان بأى مجهود ... لكن . أنت تعرف البيوت » .

كنت أعرف السبب الحقيقى كما قلت لك . أما هى وزوجها فقد نسبا ما حدث لها إلى تزحلق السلم .

ثم رجعنا من أول الدائرة فتلقيت خطابا مبشرا أعقبته فترة صمت . ثم فترة سلامة أعقبتها فترة مرض . حتى ضقنا بالموضوع .

وفى خلال هذا العام باعت « جميلة » كل حليها : غوايشها وخاتمين وحلية لطيفة معلقة على صدرها ، ولم يبق لها إلا القرط متدليا من أذنيها فى صمت يتيم .

قالت لى أثناء هذه الزيارة ، وشيء من الأسف والألم واستعذاب التضحية يلون حديثها :

ــ انظر يا أبى . لم يبق إلا هذا ــ وأمسكت قرطيها ــ واستطردت :

ـــ لكن .. ليس هناك أغلى من التضحية .

وأطرقت نحو الأرض أفكر ، وخيل إلىَّ أنها تعرف . وإذا كانت لا تعرف فقد تشعر أننى غشاش .

واستغفرت الله عشرين مرة ، ثم هممت أن أقول شيئا ، لكنى عدت فقلت غيره . فقلت :

ـــ لم يبق لك شىء من حلاك الذهبية يا جميلة ؟!

ـــ لم يبق شىء يا أبى !

ـــ أنت جميلة من غير زينة !!

ـــ فى عينيك ! حفظك الله .

ـــ ثقى أن هذا الذهب قد أخذ المرض وذهب ..

وضحكت ، وضحكت ، ثم عدت إلى بلدى .

وانقطعت الأخبار ، فأرسلت أستفسر فجاءنى خطاب يذكرنى بقاعدة هامة ، هى أن انقطاع الخبر نفسه يعتبر خبرا سارا ..

وعادت جميلة بعد بضعة شهور إلى نضارتها القديمة ، وخلا حولنا المكان في ليلة من الليالى فجعلنا نتكلم . استعدنا الماضى كما يستعيده الأحباب أو فراسخ المرحلة كما يعدها المسافرون ، فقلت لها كأننى أعترف :

ـــ هل تتذكرين يا بنيتى المراحل التى مر بها جهازك ؟

ـــ ماذا تقصد يا إبى !!

ـــ أقصد أن أقول هل تتذكرين المتاعب التى عانيتها فى سبيل ذلك ؟

ـــ طبعا ياأبى !! طال عمرك .

ـــ كانت الحلى الذهبية آخر شىء اشتريته لك .

ـــ تمام !

ـــ بعد أن عجزت يدى عن المال عرفت أن الذين يرتكبون الرذائل فى سبيل من يحبون معذورون . هل تريدين شرحا ؟

ففغرت فمها وحملقت فى شرود ، لكننى استطردت أقص عليها القصة :

ـــ كنت أطلب مالا أشترى لك به مصاغا ، فلما أعيتنى الحيلة .. سرقته ..لا تخبطى على صدرك هكذا !! فقد كانت سرقة مستورة ، ولو أنها الأولى بالنسبة إلى أبيك الطيب . سرقت الطعام من أفواه المرضى فى المستشفى ... اتفقت مع المتعهد فقدمت أصنافا أخس وكميات أقل .

واستطعت بذلك أن أوفر خمسين جنيها .

كل الذى حملته من بيت أبيك كان حلالا صافيا إلا حلاك الذهبية .

ولما كنت طول عمرى نظيف اليد . فقد عانيت عذابا كثيرا من ضميرى فى يقظتى وأحلامى ، ولم يعفنى تراجعى من العقوبة التى وقع عليها جزء منها .

كنت واثقا أنك ستشفين ، لكن بعد أن يؤدى المال المسروق وتدفع منه الضريبة ، والضريبة آلام ، لى ، ولك ، وللرجل الغريب الذى لا ذنب له . هتفت فتاتى بصوت خافت :

ـــ يا سلام !

قلت لها :

ـــ ثقى أننى أنا الذى زحلقت بك السلم على أرض المطبخ ، وأن الذى أخذناه من المرضى أنفقناه على المرضى ، فأين الربح ؟ » .

ولما فرغت من قولى كانت « جميلة » تنظر إلى معصمها الخالى من الذهب بارتياح من غسلت عن يديها « زفرة » السمك بقطعة من الصابون الجيد المعطر .

ينبوع الوفاء

كان أبى رجلا كثير العيال ، قليل المكسب ، باهظ النفقات ، قاسيا فى خشونة ، وزوجته امرأة مغلوبة ، لا تدفع عن نفسها ولا عن أولادها شيئا من أذاه .

وكان أحد تجار الخضروات والفواكه ، علمته السوق رفع صوته ، وعلمته بضاعته السريعة التلف أن يأخذ من الربح أكثر ما يمكن ليعوض سلفا ما سيلحقه من خسارة ، وعلمته كثرة الهجرة عدم التعلق بالمواطن ، وعلمه السفر على المراكب الشراعية ، الانتظار حتى تهب الريح الملائمة ، لكنه — على الرغم من مزاياه — كان متلافا كثير الأصدقاء ، تفعل به كلمة المدح — خصوصا الكاذب منه — ما تفعله يد الحالبة بضرع البقرة الطيبة ... يدر حتى آخر قطرة فيه .

كان على ظهر كفه اليمنى وشم يمثل أسدا يمسك سيفا ، وعلى ظهر كفه اليسرى وشم يمثل ترس طاحون ، وكانما هذان الرسمان هما رمز شخصية أبى ، فقد كان كاسبا لا يفتر عن العمل ، يدور كأنه أحد التروس ثم يبعثر معظم ما يكسبه بشجاعة منقطعة النظير ... مثل شجاعة الأسد ان أمسك سيفا ، ويعيش

خارج الحقل يغنى بعيدا عن أولاده . هناك في المقاهى والمطاعم وبيوت لا نعرفها ولا نعرف من فيها .

ويدخل علينا آخر الليل غاضبا من أشياء مجهولة . وأظن أن الجيران كانوا يستيقظون على صوته . يدخل محملا باللعنات من كل نوع ، وكنت أستيقظ على صوت توزيعها ، فآخذ نصيبا منها كما ينال الصغار نصيبهم من السحور إذا هم استيقظوا فى ليالى رمضان ، ويلذ له أن يرى أمى وهى تتعذب ، يؤلمها ، فتبكى ، ثم يلطمها لأنها بكت . أما إذا حدث العكس وتحملت مساءاته فى إحدى الليالى وكظمت غيظها وحبست دمعها ، فإنه كان يغتاظ كذلك ثم يلطمها لأنها لا تبكى ، صارخا فى وجهها كأنه ينادى على طماطم :

— صنم . صنم . مصيبة . مصيبة ...

عندئذ أذكر ما قالوه لنا فى المدرسة عن مصلح ، كان اسمه قاسم أمين . هذا الرجل الذى دعا إلى تحرير المرأة . وأتصور وأنا جالس أرتعد ماذا يفعل قاسم أمين لو وكل إليه بطريقة شخصية أن يحرر أمى من عبودية أبى . فأبتسم ؛ لأن القضية فى هذه الحالة لابد أن تستحيل إلى حرب تحرير يتسلح فيها قاسم أمين بهراوة ليحارب مندوب سوق الخضر والفاكهة ؛ ذا الصوت العالى ، والشارب المفتول . والكف التى تحمل أسدا مسلحا بسيف .

ونحن دائما ننتصر للضعفاء منا ... حتى القوى إذا ضعف والعزيز إذا ذل . لذلك كنت أناصر أمى . ولكن بينى وبين نفسى فحسب . فلم أكن أجرؤ على الكلام على الرغم من أننى كنت فى

ذلك العهد ابن سبعة عشر عاما ، وفى إحدى المدارس الثانوية فى فرقة متأخرة ، لأن أبى علمنى متأخرا . بعد لأى وتفكير .

وفى ليلة من الليالى استأسدت الهرة .

دخل أبى آخر الليل غضبان من لا شىء ، محملا بالشتائم واللعنات . وبعد أن استنفد طاقته من الضحك والمرح فى الأماكن التى ارتادها . وكان الشتاء قريبا أو لعل روائحه كانت تملأ الليل .

كان خمسة من الأولاد مكدسين فى حجرة مجاورة لتلك التى أنام فيها أنا وأخى. وكنت قد سمعت وقت الظهيرة شكوى خرساء من عينى أمى وحركاتها وهى تطبق الغسيل ، لأن جلابيب الأولاد خفيفة أكلها « البوتاس » ونحلها الصابون ، فهى لن تدفع عنهم غائلة البرد . وأبى ؟ .. أسد يحمل سيفا لا تستطيع أن توجه إليه نقدا . (هو يعرف شغله جيدا لا يتحمل أن ترشده امرأة) ، وهو مع ذلك بقرة حنون ، تمسح الأكف المحتالة على ضرعها كل يوم ، فيبعثر فى الليل ماكسبه فى النهار .

دخل غضبان من لا شىء محملا بالشتائم واللعنات ، وكنت أنا كذلك غضبان من هجر « مديحة » بنت ماهر افندى المدرس . انصرفت عنى وتعلقت بأحد أصدقائى وأخذ الحساد يعيروننى بأنها خطفت منى .

وكانت أمى غاضبة هى الأخرى . هرة مستأسدة ، زوجها أشبه بالمخزن الذى يفتح بابه فى الحارة ويترك بلا رتاج ...

الشقة يظلل عليها غضب غامض ، وجو فى كل لحظة ينذر بالانفجار .

وبدأت المناوشات :

ــ أليس عندكم شيء من طبيخ الظهر ياسيدتى ؟

ــ لا . كم عدد الأفواه التى تأكل ! لم لم تشتر معك عشاء ؟

ــ عال والله عال . لعل إحدى جاراتك لقنتك اليوم درسا فى تأديب الأزواج ؟

وضحك ضحكة نكراء ، ثم هدد وتوعد :

ــ لا . كفى فأنت تعرفيننى ... أخربه لك فى دقيقة واحدة .

فلم ترد عليه . فاستطرد :

ــ حسن . ماذا تريدين أن تصنعى بى ؟

ــ لا شيء . إلا أن أولادك عرايا . والشتاء على الأبواب ، وأنت تبعثر خارج البيت كل ما تكسب .

فانفجرت العاصفة ؛ لأن امرأة تحاسب رجلا . وأى امرأة ؟!! وأى رجل ؟!!

امرأة لا تساوى أكلها ، تحاسب رجلا يعرف كيف يسهر ، وقد رسم على كفه أسدا يحمل سيفا ، هذا عار !!

وانقض يلطم وجهها ، ويلكمها فى كل ركن ، وسمعت هرج المعركة ، فاندفعت إليها .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أمسك فيها يد أبى وهو يضربها ، فألقى إلىَّ بنظرة جانبية كأنها طرف سيف ، ثم رمى بفريسته الأولى بعنف حتى تكورت فى إحدى زوايا الحجرة ، ثم أمسك بيدى الاثنتين فى كف واحدة ، يحادثنى وكأنه مذهول :

ــ ولد . هل جننت ؟ .. كيف تسمح لنفسك بالتدخل بينى

وبين زوجتى ، أهذا هو الذى علموه لك فى المدارس ؟ السجن يهذب خيرا من المدرسة التى دخلتها ، أتدخل على زوجين حجرتهما وهما مختليان ؟ ..

وشعرت أنه يكيل لى التهم بلا حساب ، وبطريقة مليئة بالغش والمغالطة فغطانى عرق الكسوف . وكفاى لا تزالان فى كفه . ووقفت صامتا أنظر فى ذهول إلى عنقه الممطوط نحوى وعينيه المحملقتين فى وجهى وشفته المتدلية ، والغضب الذى ينضح من جوارحه كلها ، ولما لم أقل شيئا لطمنى على وجهى لطمة صبغت كل شىء أمامى بالأحمر حتى لون أمى المتكورة فى الركن . وقبل أن أتراجع خارجا ، سمعته يقول بلهجة تقريرية مثيرة للغاية :

ــ إن كنت رجلا بحق ، فاخرج من بيتى وارع نفسك بنفسك . لقد تركت الصعيد وعمرى عشر سنوات حافيا وبجلباب واحد . وهأنذا قد أصبحت « معلم » أما أنت ففتاة ... كمديحة بنت ماهر افندى التى احتقرتك ...

وبصق على الأرض بصوت عال ، وكأنما أسكتت بصقته هذه كل شىء فى البيت ، فنمت أنا وسكتت أمى عن الشهقات ، والطفلة الرضيعة كفت عن البكاء ، وحتى القطة التى كانت تموء فى الصالة اندست فى ثنايا « شلتة » وأطفئت المصابيح ، وهجع كل شىء إلى المصباح .

* * *

وحين ألقيت على وجهى نظرة فى المرآة رأيته يحمل آثارا مثيرة ، زرقة بنفسجية حول العينين خيل إلىَّ أنه من المحال ألا يراها التلاميذ فى المدرسة .

عند ذلك قررت فى نفسى أمرا . قررت أن أحاكى هذا الأب القاسى الذى هرب من الصعيد بجلباب واحد وقدمين حافيتين ، وسأعمل أى شيء إلا أن آكل من طعامه .

والقرارات التى نتخذها فى المراحل الباكرة من حياتنا ، قد تكون حاسمة لا مرجع فيها ، خصوصا إذا عاونتها الظروف . فغافلت أمى وحشوت بعض ملابسى فى حقيبة الكتب ، وأخذت بعض حلاها الذهبية بيد مرتجفة وقلب خافق ، وخرجت ، ولم ألق على البيت نظرة لا لشيء إلا مخافة أن تعرف أمى ما يدور فى رأسى . ويممت نحو القاهرة ليكون بينى وبين الإسكندرية سفر طويل . وعندما تحرك القطار وسارت أرض المدينة نحو الوراء ، وذكرت أن أمى صارت ضحية مرتين ، لأننى سرقتها ، ذرفت دمعة وأنا فى الشباك .

ووفقت إلى عمل فى متجر بقالة ، متوسط الحال ، فى حى من الأحياء الرئيسية فى المدينة ، وبعد مدة غير طويلة أحسست بالحنين إلى أهلى ، فكتبت خطابا إلى أحد معارفنا هناك أصف حالى ، وأرجوه أن يطمئن أمى علىَّ .

ولم يأتنى من أبى رد . كل العبارات كانت منسوبة إلى أمى واخوتى ، ففهمت أن فرارى أحنق أبى ، وأننى قد نسفت القنطرة من خلفى ، فلا سبيل إلى التراجع . واستحالت هذه التجربة التافهة إلى تجربة كبيرة ككل شيء فى حياة الناس ، وأصبحت هاربا حقيقيا ، فأخذت أرتب نفسى على هذا النمط من المعيشة ، كلما ضاقت على السبل ذكرت غلاما حافى القدمين يلبس جلبابا واحدا هرب من الصعيد ووصل إلى الإسكندرية وذلك هو أبى .

أدركنى الحب مرة ثانية .

فى صورة فتاة تسكن البيت المواجه للدكان . كانت صغيرة « شعنونة » ينبثق الضحك من فمها العقيقى الصغير بشكل يثير الحواس . كانت كأنها نشوانة دائما ، مقفلة العينين ، مفتوحة الفم ناعسة باسمة ، لمسها الشباب بعنف فحرك كل ساكن فيها ، وذكرتنى بمديحة ، وصممت على أن أعوض خسارة الإسكندرية فى صفقة القاهرة . لقد عيرنى كل الناس بفشلى فى حبها حتى أبى نفسه .

وعلى بعد عشرين مترا عبر الشارع كانت تتراءى لى النافذة . وكانت مهمتى فى المتجر أن أكتب الأسعار فى دفتر كبير ، ولم تكن هذه العملية بطبعها متواصلة ، فكان يتاح لى أن أراقب نافذتها فى أوقات معلومة . وكثيرا ما كانت تنزل لتشترى شيئا أو ترسل خادمتها الصغيرة أو تأتى الاثنتان معا ، والقلب الظمآن يتهافت على الشراب ولو كان غير روى ، وكثيرا ما تقدحنا الخسارة فنذهب لنطلب العوض دون أن ندرى أننا سنرجع بجراحة جديدة ...

وهذا هو الذى حدث لى :

فوجئت فى يوم من الأيام بغريم لى يسكن تحتها . كان يرفع إليها وجهه ، وتتدلى هى بنصفها من البلكون محنية على شكل قوس وكل شىء فيها يتلمظ ، تشير وتتواثب وتضحك ، وتدخل وتخرج ، وأحد أحبابها مزروع فى البلكون كأنه أصيص زرع ، والثانى مزروع على الكرسى فى دكان البقالة يشهد المعركة بصبر نافد وسلاح مغلول . وأخيرا .. صارت خادمتها تأتى وحدها ، وإذا ما وجهت إليها قولا

يخص سيدتها لوت بوزها . ما كان أقبحه بالوشم الذى عليه عند سفح الأنف .

ورأيتها تخرج ، ثم رأيته يتبعها بعد قليل ، فى ثياب الذين سيلقون حبيبا .. زاهيا مهندما جميلا خفيف الحركة مستعجلا تتدفق الحياة من أعطافه ، ثم رجعت ورجع فى أثرها . وألقى علىَّ نظرة من بعيد خيل الىَّ أنها ساخرة ، فقلت فى نفسى : « لكأننى طريق مرور . كل أحبابى خطفوا منى .. » وتضاحك عاملان فى المتجر بعد همس لم أسمعه ، فخيل الىَّ أنه بسببى !

ومنذ ذلك اليوم صرت أخطىء فى الحساب ، ولا أفرق بين الجمع والطرح والضرب والقسمة ، وضبطنى صاحب المتجر متلبسا بالخطأ ، ولعل أحد العمال دله على الحقيقة ، فخاف أن تلوث علاقات الهوى شرف محله ، فأنذرنى ... ثم ما لبث أن فصلنى .

على أن أحد أبناء الحلال من ذوى الجاه والوجاهة ساعدنى حتى حصلت على وظيفة محضر بمحكمة القاهرة .

هنا استقرت بى الحياة ، وأحسست أنى عثرت على طوق من الفلين فى محيط واسع ، وقررت أن أعيش فقط ، وسأهمل أمر قلبى اهمالا كافيا فأخنقه ولا أسمح له أن يئن .لماذا يفيض هذا الوعاء بحنان لم يفرغة عليه أحد فى يوم من الأيام ؟

وقررت أن أشغل نفسى بالدراسة ولو أننى موظف ، ثم أتزوج وفى البيت يجهز كثير من الناس « الحب » بهدوء

وعلى مهل كما يجهزون « الأطفال » . ذلك أضمن لمثلى من القاء القلب على قارعة الطريق فتدوسه الأقدام .

* * *

خرجت فى صبيحة يوم من الأيام لأحجز على مدين .

وكان ذلك لحساب أحد البقالين . مبلغ يقرب من خمسة عشر جنيها ما بين نقد وبضاعة . وحين طرقت الباب فتح لى شاب فى مقتبل العمر كان هو المدين نفسه ، وكان الدائن من ورائى ، ومنظر الشقة الصغيرة المكونة من حجرتين غير منتظمتين ولا آهلتين بالأثاث يتنافى مع مظهر الساكن .

وتبادل المدينان نظرة عتاب انفتح فى أثرهما البقال يعدد نعمه وآلاءه على الشاب ، ومنذ هذه الوهلة رأيت ثغرة أدخل منها . فقد أسرنى منظر المدين ، لأن آثار العز كانت ظاهرة على وجهه ، تراه فتعتقد أنه أسير أزمة ستنفرج قريبا ويعود سيدا كما خلقه الله .

ودخلنا نحن الثلاثة إلى غرفة حقيرة الفراش ، واعترف البقال أنه يعرف أصل الشاب وثراء أبيه وعراقة أسرته ، وأن حالته هذه طارئة سوف تزول لكن .. جنيه التاجر لا يحبس فى الدرج ، ولا يسجن فى المحفظة ، وإلا كان ذلك حراما ، وكل تاجر دائن ومدين ، لأن التجارة أخذ وعطاء وذمة ووفاء .. وهكذا .

بلع الشاب الوسيم ريقه فى عسر ، وأقسم بمغلظ الأيمان بأنه سيصطلح مع أبيه حالا ، وأنه سيدفع له دينه له وفوقه اعتراف بالجميل ، واغرورقت عيناه الواسعتان بدمعة مترددة ، وارتعشت أصابعه ، فوجدت مدخلا استطعت أن أؤجل به الدين إلى أجل

محدود ، خصوصا لأن كل فراش المسكن لا يساوى عشرة جنيهات .

وانصرف التاجر واستبقانى الساكن ، ليقدم فنجانا من القهوة ، وليتحدث معى قليلا .

وزاد انجذابى إليه وهو يحكى لى ؛ لأن بليتى وبليته كانتا من فصيلة واحدة .

قال :

ــ أنت شاب طبعا ومرت بك أزمات الشباب . أنا أحببت .

ــ وأنا أيضا . لا تخف .

ــ حقيقة أن التى أحببتها كانت دونى فى الطبقة (وتلفت حتى خاف أن تسمع) ولكن ذلك لم يغير شيئا من الموقف ، وأبى رجل طيب مسالم يحب ما نحب ، ولكن أمى ... سامحها الله . وقفت لى بالمرصاد . وأخيرا تزوجتها وجئت بها إلى هنا ، وهأنذا أعمل فى وظائف غير ثابتة ولا كافية ، منتظرا أن يعترف أبواى بالأمر الواقع ، فنحيا الحياة الملائمة لنا .

هذه هى القضية ...

سألته دون أن أحس :

ــ هل من الضرورى أن تكون الأم قاسية إذا كان الأب حنونا ، ويكون الأب قاسيا إذا كانت الأم حنونا ؟ .. ألا يوجد أبوان من نوع واحد ؟

فضحك قائلا :

ـــ يوجد . لكن ما فائدة الموجود بالنسبة اليّ إذا لم أنتفع به . هل العيون القوية الجميلة التى ترى بهجة الدنيا تعزى الأعمى عن عماه ، ها هى ذى موجودة ، لكن ما فائدتها بالنسبة إلية ؟!! اسمع يا صديقى ، أنا ابن رجل غنى ، لكن هذا الشقاء عظيم جدا ، ولا ألبث أن أنساه بعد ما يخرج ، لأننى أسكن مع من أحببتها فى بيت واحد ...

وسرح خاطرى أذكر الماضى . وفرغ قدح القهوة الذى كنت أشربه ، فنحيته بعيدا ، وقلت له :

ـــ لابد أنك وفقت إلى فتاة وفية .

قال بلهجة من يؤكد شيئا مؤكدا لا يحتاج إلى نقاش :

ـــ وفية ؟ ... إنها الينبوع الأصلى للوفاء ، ولم يسمع الناس عنه حتى خلقت هى .

وضحك ضحكة مرحة فيها شاعرية وحب وايمان بالتضحية .

وقلت بينى وبين نفسى : هنيئا لهؤلاء حقيقة !! إنهم يدفعون الثمن غاليا ، لكنهم يشترون بضاعة قيمة . الوفاء . نعم الوفاء هنيئا لمن يحظى به .

واستأذنت خارجا ، وقبل أن أصل إلى باب المسكن سمعته ينادى بلهجة ندية قائلا : « ديدى ... ديدى ... تعالى سلمى على الباشمحضر ... على الرجل الطيب ... لقد أسدى إلينا خدمة » .

وتقدمت ديدى ، ومددت كفى لأصافحها ، ولم تكن ديدى

سوى مديحة ... مديحة القديمة التى خطفت منى ، ثم خطفت ، ثم خطفت ، حتى رسا مزاد حبها على هذا الشاب الطيب الذى سماها ينبوع الوفاء .

واهتز كلانا كأننا لمسنا كهربة ، ثم تماسكنا .

كان من الضرورى أن أنزل وأنا أجر الماضى الثقيل ، وأن أدفع الهواء عن البيوت السعيدة ، حتى ولو كانت مبنية من القش .

نعمة كبرى ... أن نقضى أعمارنا عائشين فى المجهول . فكثير منا لو علم ... لندم كثيرا على أنه علم .

الثوب الأزرق

الاستسلام لبعض العيوب التى لا سبيل إلى التغلب عليها ، أخف بكثير من الحرب الخاسرة التى نعلنها فيضحك منها الناس ..

* * *

منذ أكثر من عشرين عاما ، وكنت أيامها فى عز الشباب .. ابن خمس وعشرين سنة ، وابن القرية ، وابن أبوين طيبين فقيرين ، جاهدا حتى جعلا منى مدرسا فى المدارس الأولية .

ولما انقضى عامان على توظفى ، فرحا بى ، فزوجانى قبل أن يخطفهما الموت ، فلا يريان ابنهما وهو يأخذ « أدواته » ليستأنف « العمل » فى « حقل » الحياة ... العظيم .

وكأنما لم يكن فى خيال أسرتنا الصغيرة المطمئنة من أمل بعد ذلك . فتنهد أبواى بارتياح بعدما سلما علىَّ أنا وزوجتى قبيل سفرى من عندهم، وبدا على وجهيهما وكأنما أصبحا لا يخافان الموت بعد أن تحققت لهما أمنيتهما الأخيرة .

ورأت زوجتى أضواء القاهرة الباهرة للمرة الأولى فى حياتها ونحن نركب عربة الحنطور ، هى فى ثيابها الجديدة الزاهية الواقفة فى

نصف الطريق ؛ بين تفصيل القرية وتفصيل المدينة ، وأنا فى جبتى وقفطانى ، أنيق مهندم ، تفوح من منديلى كلما أخرجته من جيبى الجانبى رائحة عطر العروس ، وأشير بعصاى الأبنوس ذات الحلية المعدنية إلى معالم المدينة ، شارحا لزوجتى كل شيء نمر عليه ، ثم أضحك فى اعتزاز العلماء بين فترة وفترة ، كلما رأيت فكها مرخيا من العجب ، وعينيها زائغتين فى الدنيا الجديدة الواسعة التى انفتحت أمامها فجأة .

أما هذه القروية التى ستقيم معى فى العاصمة فقد كان كل شيء فيها يرشحها لمستقبل معقول . كل عضو من أعضائها وقسمة من قسمات وجهها سيحلو عندما تلمسه أنامل المدينة ، بعد قليل سيصلح مشيها ؛ فتتأود بليونة يمينا ويسارا بدل ما تتفزز من أعلى إلى أسفل كما تتفزز السيارة على الطريق الريفى .

واستطاعت الخياطة أم حنفى التى تسكن فى آخر العطفة أن تلبسها ثيابا تعاون الطبيعة على اظهار محاسن جسمها ، ولم تعد اللهجة المدنية ثقيلة على لسانها كما كانت . والكعب العالى الذى بدا لها شاهقا أول ما خطت به فى الشقة ، أضحى اليوم شيئا عاديا تمشى به كأنها تدوس وهى حافية .

وبعد عام واحد من اقامتنا فى المدينة ، كانت كل أمورنا قد اتسقت تقريبا ، وحلت فى فمى تلك اللقمة الفلاحى التى انتقتها لى أمى بعين الحب والمصلحة .

وحين كان ابن خالى فى زيارتنا تحدثنا عن الزواج ، عن زواجه هو . وهو من مواليد العام الذى ولدت فيه والقرية التى نشأت فيها . غير أنه كان موظفا فى وزارة الصحة قبل تعيينى بكثير ، كثير

الطموح والغرور معا يتحدث دائما عن نفسه وهو فى زيارتنا ، وعن أعبائه الوظيفية ، وعن ضخامة المسئولية ، وما يقوم به من مهمات بشكل جعلنى أنا وزوجتى نتعجب كيف أن الأوبئة لا تفتك بالناس فى الأسابيع الثلاثة التى يأخذها ابن خالى اجازة فى صيف كل سنة .

وقال ابن خالى ليلتئذ : إنه سيتزوج فقلت : كذاب . فأقسم أنه صادق . فأقسمت له أنه كاذب .

وضحكت امرأتى فى « عبها » ، ضحكت وهى مطرقة ، وظهرت فى ضحكتها رنة جديدة نقلتها عن إحدى الجارات .

أما الذى جعلنا نشك فى أن ابن خالى سيتزوج ، فهو أنه خطب كثيرات ، وأعجبه من هؤلاء الكثيرات واحدة ، ثم انصرف عنها بعد ذلك ، وكن جميعا من المدينة ، لأنه لا يريد أن يتزوج من القرية .

قالت زوجتى تناقشنى رأى ابن خالى بعد انصرافه :

ـــ ولماذا يصر على أن يتزوج من المدينة ؟

فقلت لها :

ـــ إنه يريد لونا جديدا من النساء : من المتحضرات الرشيقات اللاتى يصبغن شفاههن بالأحمر .

فقطبت القروية وجهها وزمت شفتيها ، كأنها تخاف أن يمسها قلم « الروج » أما أنا فكنت أنظر إليها بعينين لا تطرفان ، وأتخيل وجهها فى شكل جديد ، لو لمسته المدينة فى أماكن جديدة ، فماذا يكون طعمه ؟

ثم همست : « لا بأس ، لكن ... هناك شىء آخر . هناك الطابع الأصيل الذى تركته القرية على وجه امرأتى .. نقطتان من

الوشم ؛ إحداهما عند سفح الأنف ، والأخرى فى وسط الذقن ، كانت تبدو كأنها « نونة » .

وعاد ابن خالى إلى زيارتنا فى الأسبوع التالى ، وكان رباط عنقه أحمر فاقعا ينادى بالفرحة ، وقميصه أبيض منشى الياقة ، وزر طربوشه يلمس حافة أذنه من فوق ، وأعلن وهو واضع رجلا على رجل متكىء على مسند الكنبة أنه اتفق .. نهائيا .

بنت ناس طيبين ، كان جدها أحد البكوات وإن كان يحمل لقب أفندى فقط .

وقال ابن خالى وهو يضحك : والمهم يا شيخ حافظ ، أن العروس جاءت مطابقة للشروط تماما ، هل تذكر الاشتراطات الضخمة التى تحدثت بها إليك ، فاتهمتنى بأننى أعيش فى المريخ ؟ ها . ها . ها . أقسم ... أنها تحققت .

ثم استطرد : دخلت علينا يوم خطبتها تحمل أكوابا من الشربات ، فتناولت أحدها وأنا أنظر إليها . كانت منحنية فى طراوة ، مسبلة العينين ، تنظر إلى الصينية ، ولما استدارت لتجلس فى المكان المواجه ، كنت أنا قد فرغت من شرب شرباتى .

وسكت ابن خالى لحظة كأنما ثقلت عليه ذكرى معينة ، ثم قال وهو يفتل شاربا رباه فأحسن تربيته : وما هى إلا خمس دقائق حتى .. كنت سكران تماما .

وانبثق يضحك ، فشاركته ضحكه ، أما زوجتى فقد فتحت فمها مستغربة كيف تقدم الخمر للخطاب ؟ فعدنا نضحك مرة أخرى .

ومضت الأيام ...

ووقفت أنا وزوجتى أمام الصوان ذى المرايا ، ليلبس كل منا أحسن ما عنده ، وكانت تقطع عليَّ عملى لتسألنى عما عسى أن يكون قد أتلف هندامها : « هل ذيل القميص ظاهر من أسفل يا شيخ حافظ ؟ » .

فأجبتها : « لا . كده عال » .

وأعود فأسأل : « انظرى يا زينب ... إن خطوط القفطان قد تآكلت من حك الحزام فى هذه الناحية . هل أغيره ؟ لكنه أكثر ملاءمة للجبة الجديدة ، وسأحاول وأنا جالس ألا أظهر هذه المنطقة » .

فتقول : « كده عال » .

ودخلنا بيت العروس ، وفتح لنا الباب خادم صغير ، ابتسمت حين وقعت عيناى على وجهه ، لأنه كان ريفيا يحمل الطابع الذى تحمله زوجتى .. نفس النقطتين من الوشم ، عند سفح الأنف وأسفل الذقن ، وحملقت فيه زوجتى وكأن بينهما صلة قرابة ، خصوصا عندما دخلنا إلى حجرة الصالون ، فأحست فيها القروية بغربة شديدة .

كان كل شيء حضريا صرفا من أحدث طراز ، ووقفت عيوننا عند حبال الستاير . فهتفت وأنا أكبس العمامة فوق رأسى : « باسم الله ما شاء الله » .

أما هى فقد كانت تصلى على النبى فى همس .

ودخل ابن خالى مزهوا مجلوا فى ثياب الفرح . ومن ورائه العروس فى روب من الحرير ، كان — فى الحق — شغلنا الشاغل طول مدة الزيارة . كان أزرق طويلا ، له كمان واسعان ، شغل به

خاطرنا كثيرا ، تلمس أذياله شبشبا فى لونه ، جميلا طويل الكعب . ولم يكن المجلس متعادلا ولا حتى تتقارب القوى فيه ؛ فكان ابن خالي يثرثر في زهو ، وكانت زوجته تنظر الى زوجتى بعينين جريئتين مكحولتين بعجب ربكتا زينب ، فجعلت تنظر باستمرار الى ذيل القميص الذى أطل من الفستان من الأمام بشكل ظاهر ، وأحسست أنا بانقباض شديد خصوصا حين رأيت عينى امرأتى تستنجدان بى ، فقررت أن أقوم .

وفى الطريق كانت ساخطة على كل شىء ، على المدينة وأساليبها خصوصا فيما ترسله إلينا من أفانين الزينة .

ولم أرد على شىء ؛ لأننى عجبت من ثورتها النادرة ، وكنت أستمع إلى وقع عصاى وهى تلمس أرض الشارع ، وفرقعة سياط سائقى العربات وأنا لا أزال أحس انقباضا . حتى إذا ما ضمنا مخدعنا في الليل ، رأيت امرأتى تنظر فى المرآةو تحملق فى وجهها وتمسح بأناملها بعنف على نقطتين . وكانت كأنها تحاول أن تمحو « بقعا » فى صمت والحاح وكدر ، وكنت مستلقيا أنظر وأنا ساكت ، حتى رقدت هى الأخرى فى سكون .

ورجعت من المدرسة ظهر أحد الأيام ففتحت لى الباب وهى تضحك ؛ كانت ضحكة من يحاول أن يهون عملا ما حين يشك فى رضا الناس عنه . ولما فحصت كل ما حولى لأرى ماذا طرأ ، رأيتها قد وضعت على شفتيها شيئا خفيفا وعلى وجهها شيئا طفيفا مما تتزين به المدنيات . فتألمت لها وغضبت منها فى وقت واحد .

وأحسست بالخيبة الكبرى التى تصيب كل من يريد أن يقاوم الطبيعة فى شىء فرضته عليه ، فعرفت أن الاستسلام لبعض العيوب

التى لا سبيل إلى التغلب عليها ، أخف بكثير من الحرب الخاسرة التى نعلنها ، فيضحك منها الناس .

فقلت لها وهى تخرج اللحم من السبانخ : احذرى أن تعودى لمثلها مرة أخرى يا زينب .. لست محتاجة الى هذه الزينة ، فضلا عن أن هناك تناقضا كبيرا فى استعمالها بالنسبة إليك أنت » .

فأجابت بانكسار : « بسبب الوشم ؟ أليس كذلك ؟ إن إحدى جاراتى فى البيت هى التى أغرتنى .. وجعلتنى أجرب . معلهش » .

فأجبت بعد أن بلعت اللقمة : « معلهش » .

وزرنا ابن خالى بعد ذلك مرة واحدة أنا وهى ، ثم انقطعت هى عن الزيارة نهائيا وبقيت علاقتنا فردية صرفة . كان يأتى إلى بيتنا وحده وأذهب إلى بيته وحدى ، وقللت زينب من مقابلاتها له كأنما نقمت عليه راحتها المفقودة .

ثم سافرنا إلى القرية فى فرصة من الفرص، وتعللت زينب هناك بعد وصولنا بتعللات كثيرة للبقاء ، أبسطها كفيل بأن يبرر بقاءها بضعة أيام ؛ أخوها سيتزوج ، وأمها مشتاقة إلى أن تؤانسها .

ووافقت بعد جهد وتركتها وسافرت . وكنت متعودا حياة الوحدة ، بارعا فى قضاء شئونى بنفسى ، حتى مضى عشرون يوما ، فبعثت أستدعيها .

ووصلت بالسلامة ، فكانت ليلة . ليلة سوداء . كنت فيها أشد غضبا وألما لها ومنها من اليوم الذى رأيتها فيه صبغت وجهها بالأحمر ، وكانت ترجونى فى خوف وانكسار ألا أرفع صوتى حتى لا يسمع الجيران ، لأنها فضيحة . ولما سألتها عن الذى أشار

عليها بما صنعت ، قالت : إنها أمها . فزاد غضبى من استبداد الأمهات ببعض ما لا يخصهن . فعادت زينب تؤكد لى أن حظها هو الذى خانها ، وأن أناسا كثيرين ساعدهم الحظ ، وأن أمها كانت تقصد المصلحة ، فألقت على نارى حطبا حتى ارتفع اللهب .

وبت أنفخ طول الليل فى ظلام الحجرة ، وأنا أسمع تنهدها وشهيقها لأنها لم تنم . وفى الصباح نهضت من الفراش ، فغلت الحلبة وسخنت الفطير ، لكننى لم أجد شهية للأكل ، فنزلت صامتا وتركتها تبكى .

سألت بعض الأطباء عما تؤول عليه مثل هذا الحال ؟ فقال إنها كالجرح تشفى ، ولكن لابد أن تترك أثرا ...

وقالت لى زوجتى وقت الظهر إن الأعرابية التى أغرتها بإزالة الوشم من وجهها نجحت قبل ذلك ، وأن أمها رأت هذا النجاح ، وأنه لا يجب أن نيأس . فتنهدت .

وكان شطر الضحك فى المأساة أكبر بكثير من شطر الدموع ، فطردتها إلى القرية مرة أخرى ، ولم أرد على الرسائل التى كانت تجىء من أهلها ، حتى كان أحد الأيام ، فأحسست أن قلبى يرق خصوصا عندما كنت أستمع إلى التلاميذ فى الفصل وهم يقرءون حكاية الغراب والعصفور فى كتاب المطالعة : « كان الغراب يمشى مشية غير عرجاء ، لكنه قلد العصفور ، فنسى المشية القديمة ، ولم ينجح فى المشية الجديدة » .

وكنت أبتسم بين لحظة ولحظة وأنا أمسح شاربى ، وأستمع إلى صراخ أحد التلاميذ وهو يحاول أن يمثل المعنى ، وصورة زوجتى

بوشمها الممسوح تتراقص أمامى على الحائط الذى يحمل خريطة وادى النيل .

وطرق باب المسكن وأنا نائم والساعة قد تجاوزت العاشرة مساء ، فقمت وعليت نور المصباح المعلق على حائط الصالة ، وفتحت الباب فإذا بامرأتى ووراءها حمال .

ورق قلبى لأنها كانت وحدها ، كانت الخطة بارعة أثرت فى أحساسى ، لو أن أحدا من أهلها جاء معها لجاز أن يتغير الموقف .

وجلسنا نتكلم . وكان المصباح بيننا على منضدة صغيرة وكنت أحملق فى وجهها الذى برىء من العملية ، فرأيت بقعتان تلمعان من أثر الكى ، كانتا قدر رأس المسمار .

وأحست بنظرتى ، فسالت من عينيها دمعتان كبيرتان ، عبرت إحداهما الخد الأيسر بسلام ، أما الأخرى فقد توقفت فى سيرها على الخد الأيمن ؛ لأنها تعثرت فى شىء .

كان كما تفهم موضع الوشم وكان وجهها متقلص الملامح .

سألتها مشفقا عليها : « لماذا تبكين ؟ » .

فأجابت وهى تشهق : « إننى ... خائفة من أن تتزوج ... امرأة جديدة » .

فتركتها فى صمت ، ووثبت إلى السرير حيث رقدت ، وسحبت اللحاف على وجهى .

أما هى فقد كانت تنقل المصباح إلى الصالة .

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من اجل ولدى
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضى لا يعود
(٩) الوان من السعادة
(١٠) اشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) اسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه